رضوى عاشور

الرحلة

أيام طالبة مصرية في أمريكا

دار الآداب - بيروت

رضوى عاشور

الرّحلة

أيام طالبة مصرية في أمريكا

دار الآداب - بيروت

الرحلة

أيام طالبة مصرية في أمريكا

الطبعة الاولى
كانون الثاني ١٩٨٣

١

غادرت القاهرة فجر ٣٠ اغسطس ١٩٧٣ ٠ قبلت مودعي ودخلت الى المنطقة الجمركية حاملة حقيبة زرقاء كبيرة بها ملابسي وبعض الكتب ، وحقيبة يد صغيرة أودعتها جواز سفري المصري الأخضر وبطاقة الطائرة ومحفظة جلدية بها نقود وبضع صور عائلية ٠ صورة صغيرة رسمها صلاح جاهين وصارت أغنية نردد فيها مع كورس الأطفال المصاحب للمغني « صوره ، صوره ، صوره ، / كلنا كده عاوزين صوره / صوره للشعب الفرحان / تحت الراية المنصورة ! » ولما كان السؤال قائما - ساعتها كما الآن - ان كان من الممكن أن نجلس في هذا الجيل أمام الزمان لكي يلتقط لنا صورة تحت الراية المنصورة ، فلقد أبقيت هذه الصورة المغناة جميلة ومصقولة مع تلك الأخرى التي استلمناها عقب حرب الأيام الستة ، محروقة كأنها تعكس ما أصابنا من تفحم في الحريق ٠ ومع الصورتين احتفظت بصورة ثالثة ، عائلية أيضا ، يتصدرها أبي حاضرا وعنيدا ، موزعا بين رغبته في أن يطلقني في الأرض امتدادا لفورة حياة من صلبه ومخاوف مسلم ريفي الجذور يريد للبنت الستر ، وأمي في الخلفية ، واخوتي مقبلين ، وأنا أتساءل ٠

ولم أكن أحمل معي صورة ذلك الشيخ المعمم ذي الوجه الوسيم ، ولكن المؤكد أنه كان هناك في مكان ما من وعيي لو أنني توقفت لأدقق • كرفاعة كنت في طريقي الى بلاد « بعيدة عنا غاية الابتعاد » لتحصيل المعارف ، ولكنني لم أكن مثله ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئا مما هو مقبل عليه ، ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحوا وعادوا مدلهين في عشق الأنوار الامبريالية •

أعادت لي الموظفة الجواز وبطاقة السفر فلوحت لمودعي مرة أخيرة واتجهت الى قاعة المسافرين حيث جلست على مقعد جلدي أسود كبير في انتظار الاعلان عن موعد الاقلاع ، وألم ملعون في سني لازمني طوال الساعات الاخيرة يزداد الحاحا ويتحول الى صداع •

في أي عام التقطت لنا هذه الصورة العائلية ، في عام ١٩٦٢ أم في مطلع العام التالي ؟ أذكر أننا جلسنا أمام المصور في الأسبوع نفسه الذي شاهدت فيه جميلة بو حريد في جامعة القاهرة • وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها الى الحرم الجامعي، فاجأتني أنوار قاعة الاحتفالات ، بدت لي في تلألؤها كعروس مجلوة • ذهبنا في أتوبيس المدرسة برفقة معلمتين ثم طلعت جميلة علينا ، امرأة نحيلة وصغيرة في ثوب بسيط على خلفية من أخضر وأبيض يلتقيان في خط يعلوه هلال أحمر ، علم الجزائر خلفها ، ونحن نهتف ، والمرأة الصغيرة تتحدث ويأتيني حديثها كعلامة على طريق السلامة • « هل أنصفت في قراري بالسفر ؟ » هذا الألم الملعون بسني لا أعرف كيف أخلص منه• يعلنون عن قيام الرحلة • أجلس في الطائرة وأربط الحزام استعدادا للاقلاع • أنظر من النافذة الى البنفسج الذي يغشى

السماء والأرض وأفكر أنه في تلك الساعة البنفسجية نفسها قبل عام وسبعة أشهر ، كانت قوات الأمن تقتاد آلاف الطلاب المعتصمين من داخل قاعة الاحتفالات بالجامعة الى الاعتقال . خرجوا في صفوف منتظمة يغنون « بلادي بلادي » ، وفي ساعة كهذه أيضا من يوم آخر كنا نقف ، شابان وأنا ، أمام الموظف المسؤول بمكتب البريد المركزي بشارع عدلي لكي نرسل برقيات الى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء احتجاجا على اعتقال الطلاب ، باسم لجنة للكتّاب والفنانين المصريين . هذا البنفسج في الفجر ناعم وحزين . ما الذي يحملني على السفر ؟ أحدق من النافذة فيتراءى لي فريد جميلا يبتسم ابتسامة مشجعة وعيناه خائفتان . يشتد الألم في أسناني وتقلع الطائرة .

– طلاب الجامعة ينتظرون للمحطة القادمة .

أعلن السائق وهو يوشك على الوقوف في محطة البلدة . نزل الركاب جميعا ما عداي ، وشاب يجلس بجوار النافذة في الجناح المقابل . وحين توقف الأتوبيس ثانية في محطته الأخيرة داخل الحرم الجامعي نزلت منه والشاب من ورائي ، ثم رأيت فتاة ذات حاجبين كثيفين لا بد أنها كانت تجلس خلفي لأني لم ألحظها قبل ذلك . سلمنا السائق حقائبنا ورحت أجول ببصري في المكان لعلي أهتدي الى الخطوة التالية . كان الشاب والفتاة قد بدآ يتبادلان الحديث بلغة أوربية لا أعرفها . اقتربت منهما وسألتهما بالانجليزية ان كانا طالبين جديدين ، ولما ردا بالايجاب حملت حقيبتي وسرت بجوارهما . وضعنا أمتعتنا في مقر اتحاد الطلاب ثم اتجهنا الى مبنى الادارة الذي وصفوه لنا . نسينا أن نتعارف ، فكرت ، أبطأت خطواتي ، قلت :

ـ أنا من مصر ، اسمي رضوى عاشور ٠

كانت الفتاة بولندية ، وقـال الشاب انـه اسرائيلي ٠ فاجأني الأمر ولم أقل شيئا ٠ وصلنا الى مكتب الطلبة الأجانب فجلست على كرسي وحدي في الطرف المقابل ٠ حين انتهت الفتاة والشاب من الحديث مع مسؤول المكتب توجهت اليـه لأسأله ، قال مشيرا اليهما :

ـ انهما ذاهبان الى برينس هاوس ، مسكن طلاب الدراسات العليا ٠ لقد وصفت لهما الطريق ، وسوف ألحق بكم هناك بعد الظهر ٠

وأعطاني ملفا به خريطة للجامعة وعدد من الكتيبات بها معلومات عن بلدة أمهرست وجامعة ماساشوستس والجامعات المجاورة لها ٠

عدنا الى مبنى اتحاد الطلاب لأخذ أمتعتنا ، ثم توجهنـا للبحث عن برينس هاوس ٠ سرت أتشاغل بالحقيبة وثقلها ، يفصلني عن تريزا البولندية التـي راحت تثرثر مع الشـاب مسافة تكفي لشخصين أو ثلاثة ٠ وأخيرا وجدنا البيت ولكننا أخذنا ندور حوله لا نعرف من أين الدخول اليه ، وكلما ظننا أننا عثرنا على المدخل وجدنا بابا مغلقا ٠ كنا في اليوم الأخير من شهر أغسطس والجو حـار رطب وخانق ، رحت أتصبب عرقا وأنقل حقيبة السفر الثقيلـة مـن يد لأخرى ٠ وأخيرا اهتدينا الى المدخل ٠

قالت مديرة البيت أن ليس لي مكان لأنني لم أرسل طلبا مسبقا ، وان علي أن أتدبر أمري لليلة أو ليلتين في مكـان آخر ٠ وحين وصول مسؤول مكتب الطلبة الأجانب حملني في سيارته الى بيت آخر من بيوت الطلاب لايجاد حجرة أقضي بها

الليلة · كان الشاب دون الثلاثين ، ودودا ومهذبا ، شديد العناية بملبسه حتى أنه بدا كموظف بريطاني يعمل بادارة احدى المستعمرات الامبراطورية في بدايات القرن · شعره الأشقر الناعم مفروق من الجانب بعناية ، متورد الوجنتين لامع الحذاء ، يلبس ربطة عنق وسترة ، ويتحدث بصوت نحاسي بطيء ، مؤكدا على مخارج الألفاظ كأنه يقدم برنامجا اذاعيا لتعليم اللغة الانجليزية · كانت هيئته غريبة بين الطلاب الذين يلبسون الشورت والبنطلونات الجينز الكالحة ،ويطلقون شعورهم بلا عناية وتغلب عليهم الهيئة الهيبية · سألته لقطع الصمت :

ـ هل زرت مصر أو أيا من البلدان المجاورة ؟

ـ لا ، ولكني قضيت عدة سنوات خدمة في الهند الصينية ·

لم أقتنع في حياتي بأن السكوت من ذهب كما اقتنعت تلك اللحظة · وبدا لي أنني لو فتحت فمي مرة أخرى فسوف يسترسل ليقول لي انه كان مجندا في فيتنام حاملا للواء الديمقراطية في أدغال آسيا · أول القصيدة كفر · أصطبح باسرائيلي وأتمسى بهذا الشاب اللامع الذي قضى « عدة سنوات خدمة في الهند الصينية » ··· ما !الذي أتى بي الى هنا ؟

كان لقائي الاول برئيس قسم الدراسات الافرو ـ أمريكية الذي كنت قد تراسلت معه بشأن مشروعي الدراسي طريفا وقد أحاطت به كل ملابسات المفارقة المضحكة · لم أكن قد أتيت الى الولايات المتحدة رغبة في الدراسة فيها عموما ولكن لاهتمامي بموضوع بعينه هو الأدب الامريكي الأسود الذي أردت

أن أقدم فيه رسالتي للدكتوراه · وفي القاهرة أشارت علي السيدة شيرلي جراهام ديبوا الكاتبة الامريكية السوداء وأرملة الزعيم الكبير الذي تحمل اسمه أن أتقدم بطلب الالتحاق بهذا القسم بالذات لثقتها في التوجه التحرري لادارته وهيئة تدريسه · وحملت لي مدام ديبوا بنفسها استمارات الجامعة وزكتني للحصول على منحة من القسم ، قائلة انني باحثة مصرية جادة أعمل بالتدريس في جامعة عين شمس ، وانني كاتبة تقدمية · وقالت لي صديقتي التي تجاوزت الستين ان رئيس القسم صديقها وانني سوف أسعد بلقائه لتميزه الانساني والعلمي ·

هكذا رحت أفكر وأنا جالسة في انتظار صديق صديقتي العجوز اذا ما كان الرجل مثلها على مشارف السبعين ، وأتساءل ان كان هناك سن للتقاعد لأساتذة الجامعة في هذا البلد ·

ـ ها هو قد جاء ·

قال وكيل القسم الذي كنت أنتظر بغرفته · قدمه لي ثم :

ـ السيدة رضوى عاشور ·

مددت يدي لمصافحة شاب فارع الطول له لحية كلحية هوشي منه ، شعره منفوش في اتساق على الطريقة الأفرو ، يلبس قميصا افريقيا واسعا ذا ألوان زاهية ، يتدلى من رقبته عقد من العاج في نهايته قناع افريقي صغير من العاج أيضا · بشرته قمحية ، مثلي ، وله عينان واسعتان برموش طويلة يميل الى اغلاقهما وهو يتحدث كأنه لا يريد أن يرى ـ أثناء حديثه ـ الا ما في رأسه ·

ولا أدري ان كانت غربتي أمام هيئة الرجل كانت أساسا

بسبب توقعي السابق لأستاذ أبيض الشعر على الأرجح ، مثقل بحمل السنوات ، ربما يميل للامتلاء ، فيبدو أقل طولا مما هو ، أم أنها كانت بسبب هيئته غير التقليدية وغير المتوقعة في سياق الجامعة التقليدي • ما الذي دفع بي الى التحدث اليه هكذا في صراحة فاجأتني ؟ هل هي غربتي فاضت بي أمام هيئة استغربتها أم أن شيئا لمحته في عيني الرجل وحديثه أشعرني بالألفة ؟ قلت له انني بدأت أشعر بالخوف وانني قد أغالب غربتي وأستمر وقد أحزم أمتعتي وأذهب ، لا أدري ، قلت انني أريد دراسة الأدب الأفرو ـ أمريكي كجزء من انشغالي بعلاقة الأدب بواقع النضال الشعبي ، وانني أدرّس في قسم للأدب الانجليزي ، ولكني لا أريد التورط في بذل سنوات من العمر والجهد في دراسة لا تدخل في نطاق همومي الملحة والقضايا الاكثر الحاحا لواقعنا الثقافي •

استمع لي ولم يطل في حديثه ، واقترح خطوات عملية محددة كالالتقاء بمدير الدراساتالعليا في قسم اللغة الانجليزية (باعتباره القسم الذي سوفيمنحني الدرجة العلمية) وزيارة أستاذ بعينه اقترح أن يكون المشرف على دراستي ثم قال :

ـ أقترح أيضا أن تضيفي الى المقررات التي ستختارينها لهذا الفصل الدراسي مقرر الأدب الافريقي • فهنا الروائي النيجيري شينوا آشيبي، وأعتقد أن الاستماع لمحاضراته فرصة لا تفوّت •

تركت القسم وقد توارى شعوري بالقلق والغربة خلف طرافة الموقف والفرق بين صورتي للأستاذ والشاب الذي التقيت به • كتبت لمريد رسالة عن ذلك وكنت أضحك • ولم يدر ساعتها بخلدي أن الموقف كان يحمل مفارقة أخرى أو أنني قد أكون أدهشت الرجل بقدر ما أدهشني ، ألم تقل

السيدة العجوز انني صديقتها ؟ والأوراق الرسمية ألا تقول انني حاصلة على الماجستير ولي خبرة ست سنوات في التدريس بالجامعة ؟ ومن جلست في مواجهته ـ أنا في خريف عام ١٩٧٣ ـ فتاة صغيرة الحجم يؤكد وجهها المستدير ذو الملامح المتناسقة ، وشعرها القصير جدا كشعر صبي ، وبساطة ملبسها ، وهيئتها ككل أنها دون العشرين !

راح مايكل يقود سيارته الحمراء ذات السقف المفتوح باندفاع لا يحدد سرعته الا تعرّج السكك الجبلية ومنحنياتها المفاجئة • بضع كلمات في أول الطريق تبادلناها ثم ساد الصمت • غلبنا المكان ربما بأخضره المطلق رغم علامات واهية لخريف على الأبواب ، أصفر وبرتقالي وأحمر كلها تضيع في الأخضر الكثيف الكثير • فأعود الى النهر الذي ولدت في بيت يطل عليه ، والوادي الممتد في الشمال بخير النهر والاخضر بكدح فلاحين نحاف تنحني ظهورهم لحرث الأرض وبذرها ، والوادي الممتد في الجنوب ، تداهمه الصحراء ، تتحرش به ، وتطغى عليه حتى يصير شريطا ضيقا من الخضرة المحاصرة • وأنا أجلس منكمشة • هل هي الغربة في المكان أم صعوبة التواصل مع هذا الشاب الجامايكي الذي يبدو وهو يقود سيارته مستغرقا في بعيد أجهله ؟ كنا في طريقنا الى بلدة مجاورة لأمهرست للالتقاء بالأستاذ الذي اقترح مايكل أن يكون مشرفا على دراستي •

هذه المرة لم يفاجئني الأستاذ ،رجل على مشارف الستين، أبيض الشعر ، تكشف حركته رغم نشاطه عن ثقل الجسد المحمل بعبء السنوات • وبدا لي الاستاذ أمريكيا تماما في

سترته ذات المربعات والسلسلة الفضية التي تحيط بمعصمه والحذاء الأبيض المطاط الذي ينتعله • جلسنا في شرفة فسيحة لا يفصلها عن حرش النباتات البرية المحيطة الا حاجز من السلك المخرم يمتد من سور الشرفة الخشبي الى سقفها • تحدثنا عن مشروعي الدراسي بلا افاضة وقبل أن نغادر ، ربت الأستاذ الامريكي العجوز على كتفي قائلا : « حاولي أن تغالبي شعورك بالغربة ! » هل تورد وجهي حياء ؟ المؤكد أن كلمات الاستاذ فاجأتني وأحرجني التفاته لغربتي ولم أكد قد أشرت لذلك •

ركبنا السيارة عائدين الى أمهرست • في الطريق دعاني مايكل لتناول العشاء فوافقت • قال وهو يوقف سيارته أمام محل لبيع الاسماك :

ـ هل تحبين الاستاكوزا ؟

ـ لا أعرفها !

ذهب ثم عاد بعد دقائق وبيده كيس كبير من الورق البني أحدث به بعض الثقوب ، نظرت داخل الكيس فوجدت حيوانين بحريين يحركان أرجلهما الطويلة التي تنتهي بخطافات ضخمة نسبيا • قال مايكل وهو يبتسم : « لا تبتئسي هكذا ، سأطهو لك شيئا آخر ! » توقفنا ثانية في أمهرست أمام أحد المحلات وابتعنا لحما وخبزا وبعض الخضروات •

ثم تجاوزنا أمهرست ورحنا نصعد الى التلال الواقعة الى شمال البلدة عبر سكك جبلية ملتوية بين أشجار سامقة تحجب بأفرعها المتشابكة الكثيفة الخضراء ضوء الشمس • وأخيرا أوقف مايكل سيارته قائلا : « وصلنا ! » •

بدا لي المكان وسط الخضرة الغائمة في الغسق الوشيك

جميلا ومختلفا • وهذا السكون الذي أنصت لـه وأستجيب غريب علي كأنه خلق جديد • فتح مايكل الباب فدخلنا الى مطبخ فسيح ، أضاء النور ، وغسل يديه ثم ملأ آنيتين كبيرتين بالماء ووضعهما على النار ثم راح يتبل اللحم قبل أن يضعه في الفرن • ودخلت أنا الى الحجرة المجاورة ، حجرة للجلوس بها أريكة وعدة كراسي ومائدة صغيرة • على أحد الجدران صورة فوتوغرافية مكبرة بالأبيض والأسود لغيفارا يركب حصانا بين الأحراش ويتألق وجهه كأنه النجمة التي تزين قبعته الداكنة ، وعلى الجدار المجاور مجموعة من الأسلحة الصغيرة : بندقية ومسدسان معلقة بشكل متناسق وجميل ، وبمحاذاة الحائط المواجه لوحان من الخشب صفّت عليهما الكتب يرتفعان عن الأرض بمقدار طول الاحجار التي يرتكزان اليها • رحت أنظر الى عناوين الكتب وأتصفح البعض منها لكي أدفع بعيدا ذلك السؤال الذي راح يلح علي • كان الصمت في المكان مطبقـا يؤكد عزلة هذا البيت الجبلي النائي ويثير الوحشة في نفسي أسأل : « ما الذي أتى بي الى هنا ؟ » هل هو افتقاد الغريبة للأمان أم هي مخاوف مبهمة ترسخت في النفس عن الاثنيـن اللذين ثالثهما هو الشيطان ؟ عدت الى المطبخ فوجدت مايكل وقد وضع الاستاكوزا هكذا كاملة وحية في الماء المغلي بالآنية الأولى ووضع في الثانية أربعة أكواز من الذرة يسلقها قال :

ـ ماذا تشربين ؟

ـ عصيـر •

ـ ألا تشربين شيئا آخر ؟

ـ شكرا ، فقط عصير •

جلسنا نأكل في صمت • مايكل في مواجهتي ووراءه على الحائط صورة « التشي » على حصانه بين الأدغال • فما الذي أتى الي بنجيب سرور حاضرا في المكان كأنه ثالثنا ، رمادي الوجه كما رأيته قبل مغادرتي للقاهرة ، وقد أصابه عرج خفيف وان كان ملحوظا بأحد ساقيه ؟ وبلا نية مسبقة رحت أحدث مايكل عن شخص عبد الناصر ، وحرب الأيام الستة ، ومقاطعة أهلي لي لزواجي على غير ارادتهم ، واعتصامات الطلاب ، وذلك الغزل الفريد الذي يغنيه الشيخ امام للاسكندرية والذي يؤنسني ترديد بيتين بالذات منه : « كأني جو المظاهرة طالب / هتف باسمك ومات معيد ! » لا بد أنني تحدثت في مواضيع متعددة ، أم كان الموضوع واحدا ؟ من المؤكد أنني تحدثت طويلا والا فكيف استطعت أن أقول كل الذي قلت عن أوجاع الجيل الذي اندفع من الأناشيد الحماسية الى أتون الأيام الستة والمذابح والرماد ؟

وحين ركبنا السيارة لكي يعيدني مايكل الى برينس هاوس كنت أشعر بارتياح من تخفف من بعض حمله • التفت اليه فجأة وقلت وأنا أبتسم :

ـ قد نحترق في هذا الوهج ، صحيح ، ونصير رمادا وقد تنضجنا النار فنطلع منها كأنبياء أو كأرغفة ! //

ولما وصلنا الى برينس قلت :

ـ انتظر دقيقة !

صعدت الى حجرتي وأتيت بالصندوق الخشبي الصغير المطعَّم بالصدف الذي كنت قد ابتعته من القاهرة ومددت يدي به من نافذة السيارة وأنا أقول بابتسامة :

ـ كنت أتصورك أستاذا كبير السن ، فلما وجدتك تقاربني في العمر خجلت من اعطائك الهدية التي حملتها لك من مصر • الآن صار الأمر مختلفا • لقد صرنا صديقين أليس كذلك !

للعين الخارجية كنت أقدم نموذجا للقدرة على التآلف السريع مع واقعي الجديد ، فأنا أجيد الانجليزية ، ويسهل علي التواصل مع الناس ، وأحب الثرثرة مني ومن الآخرين ، فما انقضى أسبوع على وصولي حتى كنت قد تعرفت على عدد كبير من الطلاب الامريكيين والأجانب •

ومع هذا كان الارتباك داخلي هو الغالب ، اذ بدا لي كل شيء غريبا ومختلفا • ومنذ اللحظة التي دفعت فيها الباب الزجاجي لمطار لوغان في بوسطون وخرجت الى الشارع ، كنت أخطو في عالم جديد ، جديد حتى في تساقط الأمطار بهذه الغزارة في يوم قائظ الحرارة في آخر شهر اغسطس جلست فيه بجوار سائق التاكسي أراقب الحركة المستمرة لمسّاحات السيارة ولحبات المطر وأنا أتصبب عرقا من شدة الرطوبة والحر •

حين وصلت الجامعة لم تكن الدراسة قد بدأت بعد ، وكان معظم الطلاب لا يلبسون الا الشورت والطالبات يضفن له « بلوزة » قطنية لا يتجاوز عرضها الشبر تترك البطن والظهر عاريين للشمس ، يسيرون أحيانا حفاة في المكان يتبادلون قبلات العشق علنا ، ورغم طرافة المشهد الذي لم يكن يسيء لأي معتقد لي ، فقد كان يؤكد أنني بعيدة بل بعيدة جدا عن

كل ما عرفت وألفت ، وأنني وحدي ٠

ووحدي كنت في غرفتي في برينس هاوس بعد أيام من وصولي ، حين دق الباب ودخلت امرأة في منتصف العمر يداها محملتان بالحقائب ٠ حيتني برأسها ودخلت ، وضعت ما في يديها وخرجت ٠ ثم جاء رجل يحمل هو أيضا أشياء ، ثم عادت المرأة محملة اليدين للمرة الثانية ٠ وهكذا ظلا يروحان ويجيئان وقد رجحت أن السيدة ستكون زميلتي في الغرفة ٠

كذب ظني ، أخيرا ظهرت فتاة شقراء طويلة نحيلة ، سلمت علي وسلمت عليها ، ثم انشغلت مع من اتضح انهما أبواها في ترتيب الأشياء ، الملابس في الدولاب ، الملاءات والاغطية على السرير وعلى المكتب والآلة الكاتبة ومجموعة من رزم الأوراق التي لم تفتح ٠ وتصورت أن الفتاة على صغر سنها لا بد في مرحلة طباعة رسالة الدكتوراة ٠ ولم أستنتج ذلك من الكم الهائل من الاوراق المكتبية التي وضعتها بجوار الآلة الكاتبة فقط بل أساسا من هذا التفاني والايثار الواضحين جدا في تصرفات والديها ٠ حيّاني الرجل والمرأة ونزلا ونزلت لويز معهما ٠ ولما عادت كانت تحمل بيدها دبا قطنيا من لعب الأطفال في حجم طفل قوي البنية تعدى عامه الاول ، ووضعته على سريرها ٠ وما ان جلست حتى سألتها :

ـ لويز ، ما هو تخصصك ؟

ـ التربية البدنية ٠

ـ عفوا ؟

ولكني كنت قد سمعت جيدا ٠

جاءت لويز الى الجامعة لتدرس التربية البدنية وهي جنوبية

من ماريلاند ، هذا ما قالته لي بعد ذلك ، تأتي الى أمهرست للمرة الأولى · قالت لي ان أجدادها لأبيها تجري في عروقهم دماء ملكية برتغالية ·

ـ وأجدادي لأمي ···

ولم أسمع باقي العبارة ، كنت أفكر أنني أخيرا قد أكون وجدت السبب في التعالي المنكمش الواضح في تعاملها معي ، فهي لا تحدثني الا اذا سألتها ، وترد بأدب شديد يؤكد المسافات ، تصحو مبكرا على صوت المنبه وتأكل في صمت متباعد ، وفي المساء تضع دبها القطني تحت رأسها وتضطجع في السرير تقرأ في الكتاب المقدس ·

مرة واحدة فقط بادأتني لويز بالحديث ، وبدت قلقة ومتوجسة ومرتبكة وهي تسألني :

ـ ما هي ديانتك ؟

ـ أنا من أسرة مسلمة ·

ثم ··· صمت مطبق !

زاد وجود لويز معي في الغرفة من احساسي بأنني وحدي· أقول لنفسي أحيانا : « هل فقدت عقلي لكي أستبدل بيتي في القاهرة ورفقة مريد بهذه الجنوبية البيضاء ودبها القطني ! »·

ورحت أنتظر رسالة من القاهرة ، رحت أنتظرها كل يوم رغم كل الحسابات التي تقول انها لم يحن وصولها (ألم أرسل عنواني بعد وصولي ؟ ألا يجب أن يصل العنوان ؟ ألا تستغرق الرسالة أسبوعا على الاقل للوصول الى القاهرة وأسبوعا آخر للوصول منها ؟) كنت أعي اللامنطق في عنادي ولكني كنت بحاجة الى الانتظار ، بحاجة ملحة الى الفعل اليومي في ظل

وجود رسالة حتى لو كانت هذه الرسالة وجودا غائبا هو المنتظر ! وكانت هذه هي بداية علاقتي بصندوق البريد الصغير في الدور الأرضي ببرينس هاوس الذي يحمل رقم غرفتي « ٢٢٤ » • في اليوم الواحد أمر به عدة مرات ، أنظر عبر طاقته الزجاجية فلا أرى شيئا ثم أفتحه للتأكد ، أجده خاويا وأذهب • فهل كنت خائفة ؟ ساعتها لم أع مدى خوفي ، ولكني كنت أعرف أنني قلقة • وبدا لي أنني ومريد اللذين عشنا طويلا في ظل جغرافيا مفرّقة ، بافتراقنا هذه المرة قد نضيع • ولد وبنية عاشقان ، نعم ، ولكنهما يسيران كل وحده في طرقات نصف مختلفة من دنيا واسعة لا يميزها الامان بشكل خاص • كان قد مضى على صداقتنا سبع سنوات وعلى زواجنا ثلاث • وفي القاهرة بدا لي بعد أن فكرنا في أمر قبولي للمنحة الدراسية وسفري وقبلناه ، بدا لي أنني امرأة خرقاء تترك أمان البيت ، (وطنا هو ألفة الأماكن والصحاب ورجلا تحب ، وتذهب هكذا !) •

وتلك الأغلفة الستة المصفوفة بجوار بعضها في مكتبتنا البنية تحمل رسائلنا وحكايتنا على مدى ثلاث سنوات قبل الزواج نلتقي فيها لشهر واحد كل عام ، كم غلاف تزيد وكم رسالة ؟ أمرضتني الفكرة ، لازمت الفراش وعادني الطبيب وبدا لي أنني مضطربة ، ولكني في الحق كنت خائفة الى حد الذعر • ووقفت كمحارب خذلته نفسه حين رأى وجه غريمه المنقض • سأولي الأدبار ، قلت لنفسي ، ولكني سافرت •

بعد أسبوع من وصولي أعلنت ادارة الجامعة أن على الطلاب الجدد أن يتواجدوا في اليوم التالي في مركز الحرم الجامعي لالتقاط الصور الخاصة بالبطاقة الجامعية •

في الساعة المحددة توجهت الى المبنى المحدد تحت أمطار غزيرة في جو رطب • وفي المركز وقفت في صف طويل بممر ضيق يزيد من الشعور بالاختناق الذي يخلفه امتزاج الرطوبة بالحرارة • وأخيرا جاء دوري والتقط المصور لي الصورة وذهبت •

بعد أيام حين تسلمت البطاقة الجامعية كان عليها صورة صغيرة ملونة أكبر قليلا من حجم طابع بريد لفتاة شعرها قصير ومشعث ، عيناها الواسعتان محدقتان أكثر من المعتاد ، بهما نظرة قلقة مضطربة أضاعت كل ملاحة للوجه ، صورة يتبادر لمشاهدها أنها لفتاة بلهاء أو مذعورة !

٢

حين استيقظت من نومي صباح ذلك اليوم الخريفي من شهر اكتوبر ، نويت الذهاب الى المركز التجاري لشراء آلة كاتبة · ولما كانت السماء صحوا والطقس ليس شديد البرودة ، قررت أن أذهب مشيا · خرجت من البيت ولم أنحرف يمينا الى الطريق المؤدية بي مباشرة الى الوادي بل سرت في اتجاه شارع أحبه ، يمتد من الجامعة المتداخلة في البلدة والتي لا سور لها الى خارجها · حين وصلت الى الجامعة في الصيف كانت أغصان الاشجار المغروسة على جانبي الشارع تتشابك مكونة خميلة خضراء لا تنفذ منها أشعة الشمس · أما الآن وقد بدأت الفروع تتخفف من بعض أوراقها ، فلقد راحت أشعة الشمس تتسلل عبرها وتصل الى الأرض تزاحم الظل عليها مكونة مساحات متداخلة من العتمة والضوء · وأفكر في « الدنانير التي تفر من البنان » ثم يأخذني من أبي الطيب المتنبي خشخشة الأوراق الجافة تحت خطواتي وأنا أمشي ، ودوائر الأوراق التي تحيط بأسفل جذع كل شجرة وكأنها تؤكد انتماءها ، أوراق صفراء وذهبية وبنية وفي لون نشارة الخشب · انحرفت يمينا وبدأت الطريق في الانحدار وأخذت

أسير بحركة مندفعة للأمام بفعل الطريق المنحدرة مستجيبة لروعة المكان بتوقد داخلي صاخب ثم بدأت أركض ، تفاجئني الأشجار فأتوقف وأسير ببطء ، ثم أعود أستجيب لتوهجها بالركض ثانية ٠ لم أر هكذا أشجارا في حياتي ، لم تكن كثرتها وتنوعها وكثافة الأوراق فيها هي التي تهب المكان ذلك الوهج بل تعدد فريد لألوان الورق على فروع الشجرة الواحدة ٠ ورق أخضر على استحياء كأنه الربيع في البدء ، وأخضر زاه ، وأصفر ساطع وأصفر أنعم ، وبرتقالي صاخب ، وأحمر كالحناء ، وأحمر كالصدأ ، وبني فاتح ، وبني داكن ، ثم بني قاتم كالموت ٠ وكأن الشجرة الواحدة قد حلّت فيها كل حالات الوجود ، عرس من الألوان ٠ ثم ماذا بعد توهج هكذا مطلق ؟ التفكير يتنافى ٠٠٠ تركته للركض كمهرة أو كطفلة أو كأمرأة تحب أن تمجد الحياة بشكل لائق حين تتبدى هكذا جميلة ٠

وحين بدت صفوف السيارات اللامعة في ضوء الشمس والمصطفة في المساحات الواسعة المخصصة لها أمام المحلات التجارية كنت قد سرت ما يقرب من الساعة ٠ التفتّ ورائي ، فاذا بمباني الجامعة بأعلى التلة تبدو كعلب كبريت متفاوتة الأحجام ، متناثرة هنا وهناك ومتنافرة مع المكان بشكل واضح٠ أدرت لها ظهري وأكملت الطريق الى المحل الذي أقصد ٠

قلت وأنا أنظر للطريق الصاعدة أمامي ها أنا لم أحسب للرجوع حسابا ، سينقصم ظهري دون الوصول ! على أي حال أحاول ٠ سرت بضع دقائق ولكنني كنت متعبة ، ولم تكن الآلة الكاتبة التي اشتريتها ، رغم كونها من النوع الصغير الذي يحمل حقيبة خاصة ، خفيفة ٠ توقفت على طريق السيارات ومددت ساعدي قابضة أصابع اليد باستثناء الابهام كنت قررت

أن أركب « أتوستوب » رغم ما سمعت من تحذيرات بأن الأمر صار مخاطرة لكثرة أحداث العنف · ما الذي سيحدث لي في وضح النهار وعلى بعد أميال معدودة من الحرم الجامعي ؟ توقفت سيارة :

ـ هل أنتم ذاهبون باتجاه جامعة ماس ؟

رد أحدهم بالايجاب ففتحت باب السيارة قائلة :

ـ سأنزل بأعلى التلة ·

وحين نزلت من السيارة بعد أقل من خمس دقائق كان لدي سبب اضافي للمرح الى جانب توفير جهد طلوع الجبل سيرا هو النظرة المندهشة للشباب الامريكيين الثلاثة الذين كانوا بالسيارة · والأرجح أن لهجتي الواثقة ، الآمرة تقريبا ، كانت أكثر مما يتوقعون من شخص أجنبي ، فما بالك وهذا الشخص ليس من الجنس الأوروبي الأسمى ولا حتى من جنس الرجال !

ما ان تتراجع المنغصات بعض الشيء عني وأصفو حتى تطل الطفلة برأسها من داخلي على استيحاء ثم تدريجيا تروح تستعيد مجد الأيام الفائتة حيث كان صخبها هو المحرك والقاعدة · هكذا كنت في ذلك اليوم الخريفي ، ولم تكن الاشجار هي العلّة وحدها بل كان أنني بدأت آلف المكان وأرتبط ببعض من فيه ·

تركت لويز زميلتي في الحجرة الجامعية مكانها بعد اسبوعين من وصولها · فشعرت بارتياح عميق لانفرادي بالحجرة دون سليلة ملوك البرتغال التي اكتشفت أن لانكماشها مني أسبابا أخرى أيضا · كانت الفتاة الجنوبية البيضاء خائفة مني ،

متوجسة من لون بشرتي ، من خلفيتي الدينية ، من جنسيتي ، كانت باختصار خائفة من مجرد أنني أنا ، وأنني موجودة في هذا العالم . فهل كانت لويز تخشى أن أقوم في الليل وأدق الطبول من حولها ثم ألتهمها حية ! أم تخشى أن أطيح برقبتها الملكية وهي نائمة ؟ أم كانت البلهاء تخاف أن أتحين الفرصة في غيابها وأدق على آلتهــا الكاتبــة ؟ لا أدري على أي شيء أسقطت لويز مخاوفها ، لكن المهم أنها انزاحت عن الجامعــة وقلبي فاسترحت .

ووصلتني من مصر رسائل . رسالتان من مريد جاءتا معا وهذا الصندوق الصغير صار طيبا لا أنسى عطاءه حتى حيــن أفتحه فلا أجد بداخله شيئا . رسالتان في الصندوق معــا ، وبعد يومين رسالة أخرى ثم رسالة من صديقة لي . وأنا أغلق باب الصندوق الصغير برفق الصديق وأفتح الرسالة وأبدأ في قراءتها وأصعد درجات السلم المفضي الى حجرتي بالدور الثاني أو أقف أمام الصندوق أقرأ الرسالة مرة أولى قبل الخروج الى الجامعة للحاق بمحاضرة .

وتأتيني كلمات مريد كقبلة على الجبين تباركني ، أخرج وأرتبك وأسأل نفسي في عتب هل كانت تنقص مريد الغربة؟ تستحيل عودته لفلسطين والبيت ليس وطنا ولكنه وطــن ! تحمس لسفري ، وشجعني ، ولكني أعرف أنه ساعــة أدار المفتاح في الباب ودخل البيت داهمته الوحشة فكيف أردهــا عنه . يقول في رسالته : « حين سافرت سافر الوطن مــرة أخرى » ، وهو لا يعرف أن هذه الرسائل كانت في الغربة لي هي الوطن ، أمامها يتراجع الشعور بأنني انفلت ضائعة فــي فضاء خارجي لم أعرف له بعد قانونا . ستزيد المغلفات حاملات

رسائلنا ، ليس هذا محزنا الى هذا الحد ، أليست حكايتنا هي التي تطول وتبدأ فصلا جديدا ؟

وقدمي التي كدت أرجع بها الى الوراء أقدمت خطوة على استحياء ثم خطوتين ، وراحت المرأة الصغيرة تستجيب وتتعلم .

أخذت أقرأ بنهم في التاريخ وفي الأدب ، أدخل مساحات من المعرفة تثقل القلب ، وأحيا من جديد آلام سيدة الآلام افريقيا النازفة عبر مئات السنين . أربعون مليونا من أبنائها يشحنون في السفن هم البضاعة وهم الحمولة . عند هذه القلاع على شواطئها الغربية يختمون ، تكدس السفن بهم الى وجهتها في عالم جديد يبدأون أيامهم فيه على خشبة المزاد العلني . بيع وشراء ، مال وبضاعة . تتحرك الآلة تبتلع وتنتج . عبيد كثار يفلحون أرضا . سيد في بيت أبيض مرفوع على عمد . مساحات تترامى من تبغ وقطن وقصب السكر . آلة تبتلع العمر وتدور . والعبيد يغنون : « أحيانا أشعر / كطفل لا أم له / بعيد جدا عن بيتي » . عبد يهرب تحت جنح الليل . عبد يتآمر في السر . عبيد يقسمون : حتى الوليد من صلبهم سنقتله لأنه سيكبر يوما ويصير بالحق العنصري مالكا لنا . ولكنهم يقتلون . الأحمر يغلب في هذا العالم الجديد في العنف ، والغربة تسري . ويحكي العبيد عن العبد الفتي الذي صرع الشيطان في حياته ثم مات ووجهته الجنّة فلم يقبل ، فقصد جهنم فلم يقبل ، فحمل مصباحه وراح يهيم في الكون وعبر الزمان . تتعاقب الأجيال والغربة تسري ، وقطار يحمل أسرا من السود يأتون الى مدن الشمال هربا من دودة القطن وسطوة الأسياد . العبودية فعل ماض . وهؤلاء القادمون أحرار

بحكم التاريخ والقانون المدون • وتدور الآلة تبتلع وتنتج • هذا أسود يضرب حتى الموت • هذا أسود يهمس في الفجر • جموع سوداء ونار تضطرم في المكان كحريق تتناقله أشجار الغابة في العاصفة • والغربة تسري والاحمر يسري •

وأقرأ في الأدب الافريقي وتاريخ حضارات القارة ، تتسع المساحات أمامي وتترامى • وهذا الازرق البحري حدود المكان • والزمن يسري مثقلا بالفعل كهذه الأنهر الثلاثة : النيل والنيجر والكونغو • أخوض في الزمان فأنتمي للمكان • مقص صغير يدور في ورقة سوداء محددا شكل افريقيا • مساحة من الأسود ألصقها على خلفية الاخضر ، وبقلم رصاص أرسم خارطة القارة على ورقة بيضاء وأفصّل عليها جغرافية المكان وحدود دوله ، ألصقها على خلفية من الاحمر • وأقبل بنهم على هذه الكتابة التي كنت أجهلها • تتسع المساحات وتتحـدد والعين تبصر جموعا تسعى وسدودا تعترض طريق النهر • هذا سد يسقط• هذا السد سيسقط • جموع تسعى تبصرها العين ويخشـى القلب الدم المسفوك ثم يهلل هلليلويا ! وأتعلم ••• من حركة خاطفة على حشائش ندية يعقبها سكون منكمش متوجس لصق جذع شجرة • السنجاب الجديد عليّ يباغتني فأعرف أنه في سكونه كالفأر قبيح ولكنه في حركته الخاطفة انسياب مدهش وجميل •

وأحضر حفلا موسيقيـا لديوك ألينغتون وأستمع للمـرة الأولى لموسيقى الجاز تعزفها فرقة أمام عيني • وجاهدة أحاول الفصل بين الرجل الجالس الى البيانو والذي تجاوز السبعين والنغم المنبعث من حركة يديه ومن الآلات الاخرى التي يقودها فلا أستطيع • هل هذه الموسيقى منه أم هو الذي منها ؟ وأي

ايقاع ذلك الذي يملأ المكان ويحاوره جسد الشيخ العازف ، ايقاع سنوات العمر السبعين أم ايقاع الموسيقى أم هو ايقاع أمة في السبي ؟ وهذا الساكسافون وجع الروح مرئيا ومسموعا ·

كنت قد بدأت أستعيد شيئا من الطمأنينة والقدرة على الصخب · لذلك حين وجدت نفسي بين كل تلك الأشجار المتوهجة في ذلك اليوم الخريفي الدافيء توهجت ورحت أركض كمهرة نافرة أو كطفلة ·

دخلت الى برينس هاوس وبيدي الآلة الكاتبة الجديدة ، وانحرفت يسارا حيث صناديق البريد فسمعت مسز روبنسون، مديرة البيت ، تقف بباب حجرتها في نهاية الردهة تناديني · حين وصلتها كانت قد عادت الى مكانها المعتاد وراء المكتب قالت :

ـ روبرت وزوجته اتصلا بك وهما يعربان عن أسفهما لاندلاع الحرب بين مصر واسرائيل ···

أنا أيضا آسفة لهذه الاخبار ، أرجو ألا تقلقي أكثر من اللازم !

للحظة بدا لي ان المرأة بصوتها الرفيع وجسدها النحيل الجاف ومكتبها وحجرتها وجود كابوس عبثي · أية حرب ؟ وأي أسف ؟ وأي روبرت ؟ صعدت ركضا الى حجرة الطالبة العربية الوحيدة بالبيت « ماذا حدث ؟ » رحنا نقلب في محطات الاذاعة ·

حين اندلعت حرب ١٩٦٧ كنت في احدى قاعات الدرس بجامعة القاهرة أقدم امتحانا في اللغة اللاتينية ، وفي وعيي الذي خلقته الأناشيد الحماسية وخطابات عبد الناصر وجو

الانجاز الوطني العام الذي أشاعه اعلام المرحلة كان الاشتباك مع اسرائيل يساوي لحظة لاسترجاع الحق ودحر الغزاة • وكأن زحف الجيوش باتجاه أراضي فلسطين المحتلة يعني انتصار الجيوش في تحريرها ، وكأن الحرب فرح أو وعد بفرح • ولذلك حين سمعت صوت القصف وأنا جالسة أكتب اجابة سؤال من أسئلة الامتحان لم أتوجس ، ولما غادرت القاعة وعرفت بخبر اشتباك القوات اندفعت في الحماس • فما الذي حدث الآن لكي أشعر بهذا الخوف الغالب وكل هذا الارتباك ؟ هل صرت بلا وعي مني أربط بين حرب وانكسار ؟ أم هي عزلة الغريبة في بلد بعيد ؟ أم هو الحس العاقل بأن حكاما كهؤلاء لا يمكن أن يقودوا البلاد لبر أمان ؟ أقعدني الخوف وليوم وبعض يوم لازمت غرفتي هيابة من مواجهة الآخرين •

وأنتظر مكالمة تلفونية من القاهرة ، لا تأتي ، والاعلام الامريكي حصار ، وغولدا مايير بفيلم تلفزيوني تتجول بين بنايات من ثلاثة وأربعة طوابق • هل يمكن أن تكون السويس ؟ قال المعلق في نشرة الاخبار انها السويس ! وتحمل «النيويورك تايمز» في صفحتها الأولى صورة لجنود مصريين أسرى مع حارسهم الاسرائيلي الذي يشرف عليهم من فوق منصة • حذاء الاسرائيلي وكعب بندقيته بمستوى رؤوس المصريين بأسفل الصورة • ولا نتيقن من انجاز العبور وتحطيم خط بارليف الا وقد وصلتنا أخبار الثغرة •

كنا عشرة من الطلاب العرب في جامعة أمريكية عدد طلابها يتجاوز العشرين ألفا • من العشرة أنقصنا ثلاثة ، واحدا متفرغا

للنصب واثنتين محكومتين بقبضة حديدية لرجل هو زوج الأولى وأخو الثانية · (تذهبان معا الى المختبر في الجامعة ومعا تعودان ويا ويلها أن تلتفت يمنة أو يسرة !) كان عددنا قليلا فقررنا تشكيل لجنة لا تقتصر علينا بل يسهم فيها كل من يرغب من طلاب الجامعة · وحين تشكلت اللجنة كان بها طلاب أمريكيون من الشبيبة الشيوعية والتروتسكية واليساريين الجدد وأفرو ـ أمريكيون وبورتوريكيون وطلبة من افريقيا وأمريكا اللاتينية · وبهذا اكتسبت « لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني والعربي » مكانتها بين نشاطات طلاب العالم الثالث داخل الحرم الجامعي ·

واجتمعت اللجنة للمرة الأولى في قاعة صغيرة من قاعات اتحاد الطلبة · قعد البعض منا على الارض ووقف البعض الآخر وجلس الباقون على الكراسي القليلة الموجودة · على الأرض جلس شاب من منظمة الشبيبة التابعة للحزب الشيوعي الامريكي يعلق في سترته الجينز الكالحة شارة معدنية مدورة عليها صورة قبضات مرفوعة لسواعد بيضاء وسوداء وحمراء · له لحية كثة وشعر مشعث يلمه خلف أذنيه بشريط أسود دقيق ، ويربط عنقه بمنديل أحمر كأنه بحّار عتيق · تكشف ملامحه الدقيقة وعيناه القلقتان عن بنيان نفسي رقيق بل وهش · كان صغير السن ، لم يتجاوز العشرين على الأرجح ، وشديد العذوبة في تعامله مع الآخرين ·

في مقابله جلس أيضا على الارض شباب تروتسكيون ثلاثة ، فتاة واثنان من الشباب تكشف هيئتهم عن انتمائهم للثقافة الهيبية · ملابسهم عتيقة وكالحة · لا تلبس الفتاة صديرية ويصل شعر الشابين الى أكتافهما · تكلموا عن رفضهم

لاسرائيل كدولة استعمار استيطاني ٠

وشاب أمريكي من الجماعات السوداء وقف مستندا الى الحائط ، فارع الطول ونحيل ، سواده لامع ، جميل القسمات ، تبدو واضحة عنايته بما يلبس ٠ يعي جماله وقوته ويحب أن يعرف الآخرون أنه أسود جميل وقوي ٠

وبجواره وقف الشباب الأثيوبيون في وجوههم اختصار مدهش للعلاقة القديمة بين القارة السوداء وجزيرة العرب ، في عيونهم اباء ولا يعيرون ملبسهم عناية خاصة ، يتكلمون بهدوء وخبرة تنظيمية ٠

وفي ذلك الاجتماع الاول لم يحضر سوى بدرو من طلبة أمريكا اللاتينية ، فتى فوّار وطيب ويصر أنه من أصل فلسطيني ٠ « جدي من فلسطين » ، « وما اسم جدك يا بدرو ؟ » فيحمر وجهه ويقول بالحماس السريع نفسه : « ليس جدي مباشرة بل أبو جدي ! » ٠

أما نحن الطلبة العرب فتناثرنا في القاعة نشارك في الحوار ونعمل على الوصول الى عدد من النقاط المشتركة نصوغها في بيان تأسيسي ننشره في جريدة « الديلي كوليجيان » الجريدة اليومية للجامعة ٠ كنا سبعة ، مصريون ثلاثة وسوريان وفلسطيني ولبنانية ٠ وكان واضحا أن البعض منا غير متصالح مع هذا التكوين للجنة حتى ان احدهم قال بنبرة شبه غاضبة قبل مغادرته القاعة : « علينا أن نقرر ان كانت هذه لجنة عربية أم لكل من هب ودب من الشيوعيين والسود ! » كان من الواضح أن زميلنا خائف من وجوده هكذا فجأة وسط أناس يرفضهم طبقيا وعنصريا ويخشاهم سياسيا ، ومع ذلك بقيت له عين في الجنة وعين في النار ، يريد فعاليتهم

وقدرتهم على المساندة ، ويتمنى في الوقت نفسه لو أنهم غير موجودين ! والأرجح أن آخرين كانوا يشعرون بما يشعر به وان لم يفصحوا عنه مثله ٠

أوضحنا موقفنا في بياننا وفي عدة رسائل الى المحرر مركزين على أن عداءنا لاسرائيل ليس رفضا لليهود أو عداء للسامية بل هو رفض للصهيونية ولدولة استعمار استيطاني ترتبط مصالحها بمصالح الامبريالية ٠ وبدأنا نتناوب العمل في الوقوف أمام مائدة المطبوعات بمركز الحرم ٠ ولم تكن مهمتنا هي فقط توزيع النشرات وبيع الكتب بل كانت أساسا توضيح الاستفسارات حول القضية ومناقشة من يريد الدخول في حوار حول الموضوع ٠

كان الجو العام في القاعة شديد الحيوية والتنوع ، فادارة المركز تسمح بمائدة لكل من يطلب ما دام هناك مكان وموائد ٠ بالقرب منا مائدة لفتاة تهوى صناعة الأحزمة الجلدية ، تزخرفها بسكين وتبيعها ، ومائدة أخرى لطلاب يصبون الشمع الملون في قوالب ذات أشكال مختلفة ويبيعونه ٠ وموائد تحمل مطبوعات هذه الجماعة السياسية أو تلك ، ومائدة عليها مطبوعات دعاة الشذوذ الجنسي ، وفي لصقنا مباشرة وقف شاب هيبي الهيئة يبيع أدوات نحاسية صغيرة خاصة بتدخين الماريوانا ٠

كان مبنى مركز الحرم قد صمم حديثا لاستيعاب النشاطات الطلابية ولمنافع أخرى أيضا ٠ مبنى ضخم من عشرة طوابق ، طابقان منها تحت الارض ، يضمان مكاتب اتحاد الطلاب وقاعات للاجتماعات والعروض الموسيقية والسينمائية ومحل تتفاوت معروضاته من الكتب الى معجون الأسنان ومحل للحلاقة وآخر للطباعة ومكتب بريد وآلات « فليبرز » وبائعات

آلية للسجائر والحلوى ومقهيان يوفران الى جانب المشروبات بعض الوجبات السريعة • أما الادوار العليا من المبنى ففيها فندق لزوار الجامعة ومطعم وبار • ولم تكن الحركة بمركز الطلبة تقل قبل انتصاف الليل •

في هذا المبنى نصبنا مائدة مطبوعاتنا بالقرب من أحد المداخل وكان البعض يتوقف للسؤال أو النقاش ، وكثيرا ما كان يقترب شاب أو فتاة ويبدأ الحديث بالعبارة التالية :

ـ أنا يهودي / أنا يهودية !

باستفزاز ، بحب استطلاع ، أو بتوجس •

ـ نعم •••• و ••••

كنت أنتظر ما بعد ذلك • في أول الأمر كان العديد منهم يعتقدون أن هذا الرد دليل خبث أو حنكة سياسية أو على الأقل لباقة ، ولكنهم تدريجيا بدأوا يصدقون ما كنا نقوله عن عدم عدائنا لليهود كيهود ومن تأكيدنا على الفرق بين اليهودية كدين والصهيونية كعقيدة سياسية •

هذا ما كان من أمر الطلاب اليهود العاديين ، أما الصهاينة فكانوا شديدي العدوانية تجاهنا ، وكان أكثرهم عدوانية شباب « رابطة الدفاع اليهودي » • يسيرون داخل الحرم الجامعي بالطواقي على رؤوسهم وعلم اسرائيل على شكل قطعة قماش مستطيلة ملفوفة على ذراعهم • وكلما رأوا أحدا منا وقفوا يحدقون فيه باستفزاز ارهابي صارخ • لم يجرؤوا على ضرب أحد منا خشية على أنفسهم ومستقبلهم الدراسي ، ومع ذلك فلم يعدموا وسيلة لاشعارنا بأنهم هناك على استعداد للفتك بنا في أية لحظة • هكذا وقف أحدهم في مواجهة كل المتحدثين

باحدى ندواتنا على مدى ساعتين تقريبا يحدق في المتحدث ويحرك جذعه يمنة ويسرة. وهكذا أيضا كانوا يقفون بالساعات أمام مائدتنا لا ينطقون بحرف ، فقط يحدقون فينا لارهابنا ، فنزيد حنقهم علينا بتجاهلهم ونواصل عملنا ، الواحد منا يحل محل صاحبه حتى الرابعة مساء ، نجمع مطبوعاتنا نودعها في صندوق كرتوني كبير ونسلم المائدة ونذهب .

منذ طفولتي المبكرة رحت أغالب الخوف وأخرج من كل جولة معه رافعة رأسي في اعتداد طفولي جميل . نشأت بين صبية ثلاثة هم اخوتي ، ولأنني كنت دائما أخشى أن تنسب لهم الشجاعة والاقدام لأنهم ذكور وأن يرتبط بي الضعف أو التخاذل ، فقد كنت دائما أقفز للمواجهة تاركة خوفي ورائي . أمد يدي لأخذ حقنة التطعيم أولا وأدعي أن الحقنة لا تؤلم ... لا أراوغ في تناول الدواء المر بل آخذه في هدوء متكلف مدعيه أن مرارته مقبولة ... أراهن أخي الأكبر أنني أستطيع تجاوز قدرته على التحمل ... لا أبدي خوفي حين اضطر للدخول الى مكان مظلم . ولا أدري تحديدا أي آثار سلبية ترك هذا العناد الطفولي الممتزج برغبة في تأكيد الذات على سلوكي بعد ذلك ولكنني أدري أنني اكتسبت قدرا من الشجاعة الأدبية والاقدام.

ولكنني في هذه الجامعة الامريكية التي درست وأقمت فيها شعرت لأول مرة منذ طفولتي المبكرة بالخوف يلح . لقد نجح هؤلاء الصهاينة في اثارة قلق عميق في نفسي ، هل ينقض أحد منهم عليّ بعصا غليظة حتى يحطم رأسي ؟ بأي شكل من الايذاء يا ترى سيترجم هذا الشباب من « رابطة الدفاع اليهودية » كراهيته المتبدية بهذا العنف في نظرته لي ؟ وهذا المكان الامريكي لا يثير في النفس الأمان . وهذه اللافتات

المعلقة في كل مكان تزيد من الشعور بذلك ، لافتات موجهة من الشرطة الى الفتيات : « اذا وقع اعتداء عليك فاتصلي تلفونيا بأحد الأرقام التالية » وتبعا للأرقام الرسمية المعلنة ، هنـاك حادث اعتداء جنسي يتم كل ١١ دقيقة في الولايات المتحدة ٠ ومسز روبنسون مديرة البيت الامريكية تخشى الخروج مـن برينس هاوس بعد المغرب ٠ فهل أفعل مثلها ؟ هذه امـرأة جففها الخوف ٠ لم تحل مخاوفي دون الذهاب والرواح في كل وقت الى أي مكان ، ولكنني في الليل حين يكاد الحرم الجامعي يخلو من الناس وأشعر بمجموعة من الشباب يسيرون خلفي أبطيء الخطو حتى أتركهم يتجاوزونني وأرتاح لأنني أنا التي تراهم وتشرف على حركتهم ٠ وفي الأيام الممطرة أو تلك التي يتوقع هطول المطر فيها أشعر بقدر أكبر من الأمان (هذه المظلة لها عصا قوية ، تصلح ان لزم الامر للدفاع عن نفسي !) ٠

٣

الركض حالة أعيشها دائما • في طفولتي كانت طاقة الحياة فيّ تلح وتفيض فأركض • وفي مراهقتي ركضت خوفا من جسدي النامي ومن الحراملك المنتظر • ثم بقيت أركض لكي لا أفقد ندّيتي للرجال من أبناء جيلي ، أركض لكي أتعلم، أركض لكي أستقل ، وأركض لكي لا يعيدني أهلي الى حظيرة حبهم ووصايتهم ، وأركض لكي لا يزج المجتمع بي في خانة الدونية المعدة سلفا للنساء • وبقيت أركض حتى صار الركض طبيعة ثانية لي • وهكذا منذ وصلت الى أمريكا وجدت نفسي أيضا أركض درءا للغربة ووفاء بالتزامات دراسية متعددة سعيا لتحصيل سريع يعيدني لمصر • فأحضر الدروس المقررة وأقرأ وأكتب وأناقش وأشرح وأقضي وقتا طيبا ، دائما ركضا •

ولكن يحدث أحيانا ما ليس بالحسبان فأتوقف ، بتوقفَ كل شيء • كنت أعبر الطريق ركضا وبيدي كتابان اشتريتهما لتوي حين بدا لي انني أسقط من فوق سور عال ، أتدحرج عليه بلا نهاية وعلى شفتي شبه سؤال معلّق « لماذا ؟ » •

في المكان جلبة • أدور بعيني • أنا في الشارع • أنا

ممددة على الأرض ٠٠٠ ممددة على الأرض في الشارع ٠ أرفع عيني ٠ يتحلق حولي أناس لا أعرفهم ٠ هذا وجه أعرفه ٠ أتعلق به ، أهتف « أهلا بدرو ! » أعي تدريجيا أن حادثا ما وقع لي ٠ النفير المميز لسيارة اسعاف ٠ يحملونني فيها ٠ بجواري يجلس شخص لا أعرفه يسألني عن اسمي فأجيبه ٠

– عنوانك ؟

– حجرة ٢٢٤ برينس هاوس ٠

– عنوان أهلك ؟

– أهلي ليسوا في هذا البلد ٠

يصرّ الرجل وأنا متعبة أقول لنفسي انه أحمق لا يتصور معنى أن يرسل للقاهرة بأن دهمتني سيارة ، لن أجيبه ! تضايقني رجرجة السيارة ، لماذا حملوني هكذا ممددة على ظهري ٠ أغمض عيني ٠

ها أنا ممددة مرة أخرى٠أين ؟ ضوء ساطع ٠ يفحصونني٠ هل هذا مستشفى الجامعة ؟ أسمع شخصا يقول «كونكاشن» لا أعرف معناها ٠ هل رحت في غيبوبة أم نمت أم أعطوني حقنة مخدرة ؟ لا أدري ٠٠٠ لا أذكر ٠٠٠ كان الوقت صباحا حين نزلت لشراء الكتب ٠ الوقت الآن ليل ٠ بجواري مصباح صغير وباقي الحجرة مظلم ٠ شاب وفتاة في لباس أبيض ٠ حين ألحظ وجودهما وأنظر في اتجاههما يبتسمان لي ٠ ثم لا أعود أشعر بوجودهما ٠ هل نمت ؟ ها هما ثانية ٠ تضع الفتاة في فمي ميزان الحرارة ويقيس الشاب لي النبض ٠ أنام وأصحو عليهما مرة أخرى يقيسان النبض والحرارة ٠ يذهبان ويعودان ٠ هل كانا يوقظانني أم كنت أستيقظ على وقع

خطواتهما ؟ هل كانا دائما معا أم يأتي الشاب مرة والفتاة مرة أخرى فيبدو لي أنهما يأتيان معا ؟ هل كان نوما أم غيبوبة ؟

ولكنني في صباح اليوم التالي كنت في حالة جيدة . ولاحظت أن الممرضات كن ودودات ، نقلنني الى سرير آخر بجوار نافذة تكشف جزءا من التلة . هذا فعلا مستشفى الجامعة ، والدور الثاني الذي أنا فيه في مستوى الاشجار نفسه من الجهة التي تطل النافذة عليها . كنا في بداية نوفمبر والشتاء لم يتوغل بعد فلم تتعرَّ الأشجار من أوراقها تماما . بت أنظر اليها وأنا راقدة على جنبي الأيمن .

بعد الظهر جاءتني احدى زميلاتي في برينس هاوس وأتت معها بما أحتاج من ملابس ، وبعدها جاء زملائي من الطلبة العرب وقال أحدهم مازحا وهو يسلم عليّ :

ـ طبعا ، لم تعتادي السير بين السيارات . الجمال لا تدهم المشاة !

وأكمل الثاني ضاحكا :

ـ ما هي انطباعاتك عن الحياة المدنية بعيدا عن الصحراء ؟

فقال الأول بسخرية :

ـ يجب أن تسألها عن التماسيح أولا وهل تتعرض للمستحمين في النهر !

قلت :

ـ أما أنا فلدي واقعة تفوق هذه الحكايات كلها . حين وصلنا أقام لنا مكتب الطلبة الأجانب حفل تعارف وكان معنا

طالبة جديدة من ألمانيا مالت عليها سيدة أمريكية لا أعرف من أي كوكب هبطت وسألتها باهتمام بالغ : « هل لديكم تلفونات في ألمانيا ؟ » ويبدو أن صدمة الفتاة الالمانية بالسؤال أفقدتها القدرة على الاجابة ، ويبدو أيضا أن السيدة الامريكية قد لامت نفسها لأنها أحرجت الفتاة بالسؤال ، فقد لا يكون هناك في النهاية تلفونات في ألمانيا ، فسكتت هي الأخرى ولم تنطق·

ضحك زواري من الحكاية وقال أحدهم وهو لا زال يضحك :

ـ انك والله مفترية · صحيح انهم جهلة ومنغلقون ولكن ليس الى هذا الحد · اعترفي ان الحكاية من تأليفك !

قلت وأنا أبتسم :

ـ هذا ما سمعته ، والعهدة على الراوي !

كنت أفضل بكثير من اليوم السابق ولم أعد أشكو آلاما محددة فاستكنت للرقاد في السرير وبي امتنان ضاف يصل لكل شيء حولي · دهمتني سيارة ، صدمت رأسي ، كان يمكن أن يودي الحادث بحياتي ، وها أنا بخير ، ملأني شعور بالامتنان · ولما أخبرتني الممرضة بأنهم سيجرون عليّ بعض الفحوص صباح اليوم التالي تمهيدا لخروجي من المستشفى كنت في حالة من الرضى والسكينة ·

خرجت من باب المستشفى وكانت الشمس ساطعة تضفي شيئا من التألق على المكان ودفئا مميزا في يوم خريفي · قالت صديقتي التي جاءت لاصطحابي : « انهم جميعا ينتظرونك في السيارة » انعطفنا يمينا فوجدنا صديقنا الايراني ينتظر بجوار سيارته ومعه نصف دستة من الصحاب أقبلوا عليّ جميعا وشدوا على يدي وقبلوني · عدنا الى برينس وقد تحولت

السيارة الى نسخة من سيارات الأجرة التي تنقل الركاب بين أقاليم مصر ، تحمل ضعف حمولتها من ركاب يثرثرون في صخب • قلت وأنا أضحك :

– لا ينقص السيارة الا السلال !

وهكذا وصلنا الى برينس هاوس ودخلناه آمنين في موكب ظافر « ألم نأت بالسلامة ! » علّقت صديقتي بجدية •

كنت قد بدأت الارتباط ببرينس هاوس بمعرفة من فيه والاعتياد عليهم ، من مديرة البيت التي تطل من باب حجرتها في الدور الأرضي من وقت لآخر كفأر يخرج رأسه الصغير من جحره في حذر متوجس ، الى مسئولي النظافة في الدور الذي أسكن فيه اللذين كانا كشخصين فكاهيين في مسلسل تلفزيوني ، أحدهما قصير وسمين ويضحك بصمت كأنه يبتلع ضحكاته ، والآخر طويل يتحدث بصوت جهوري ، يقذف بضحكاته الصاخبة فيتحرك فكه الأسفل الضخم بشكل مفاجيء • ومن طلاب البيت صار لي أصدقاء أسكن اليهم ويسكنون الي ، ومعارف كثيرون يمتد بيننا أحيانا جسور من المودة والدفء • والكل يعيش تجربة الانتظار المشترك ساعة توزيع البريد حين نقف كل أمام صندوقه الصغير والفتاة السمراء السمينة المسؤولة عن توزيع الرسائل يوميا تبدو كخيال متحرك عبر زجاج الصناديق وهي توزع الرسائل التي حملها رجل البريد قبل قليل •

وجاءتني زميلة جديدة في الحجرة لا تجري في عروقها دماء ملكية ، فكان ذلك أول ما حمدت الظروف عليه • كانت أنيتا في الثامنة والعشرين ، أي تكبرني بعام واحد ، وتدرس للحصول على درجة دكتوراه في علوم التغذية • ما ان دخلت

الحجرة وعرفت أنني مصرية حتى أعلنت عن فرحها الغامر لأن جدها لأمها من أصل سوري • وضعت أمتعتها جانبا وجلست تحكي لي ، كما يفعل الامريكيون غالبا ، عن شجرة العائلة • قالت ان جدها هاجر من سوريا في شبابه وعمل بالتجارة وأثرى وتزوج من امرأة ايطالية كاثوليكية هي جدتها لأمها ، وأن الازمة الاقتصادية العظمى في عام ١٩٢٩ والتي عاصرتها أمها كطفلة صغيرة أدت الى افلاس الجد الذي مات كمدا بعد ذلك •

– جدي كان اسمه توفيق (نطقتها تفيك) أليس هذا اسما عربيا ؟

ثم أكملت وحماس اكتشافها للأصل المشترك بيننا يغذي مساحة جديدة من حديثها :

– أما أبي فمن المورمون ، والمورمون هم جماعة •••

كانت الفتاة طيبة وسهلة المعشر ، بها مسحة ريفية تتبدى في جلستها وسلوكها المحافظ بالمقارنة لبنات جيلها من الامريكيات • وهي تظهر ما تبطن فلا يخفى على أحد ممن يتعامل معها أنها ، رغم تقدمها الدراسي وصغر سنها ، شديدة القلق لعدم زواجها الى تلك اللحظة •

ويبدو انني بعد ما يقرب من ثلاثة شهور على وجودي ببيت الطلاب هذا كنت قد استعدت قدرتي على الاستمتاع بدور المشاهد • ولما كان المشهد في الغالب له صفة الطرافة والغرابة ، وهو الامر الذي أخافني في البدء ، فقد رحت أتابع ما يجري بالاستغراق المنفعل المندهش المتوجس أو المفتون لشخص يشاهد فيلما سينمائيا لأول مرة ، استغراق لا ينفي الوعي بالمسافة الفاصلة بين المشهد والمشاهد •

وأنا في طريقي من المكتبة الى برينس هاوس رحت أمني نفسي برسالة أجدها في الصندوق الصغير • سوف أدير القرص الذي يحمل الأرقام جهة اليمين حتى يستقر على رقم ٣ وأدير القرص الذي يحمل الحروف جهة اليسار حتى يستقر على حرف اللام فينفتح باب هذا الكهف السحري الصغير كاشفا عن رسالة لي أو رسائل ! فاذا لم أجد شيئا أسرعت الخطى •

لمحت كومة من الأوراق عبر الطاقة الزجاجية الصغيرة • هل يمكن أن تكون أوراقا رسمية من ادارة الجامعة أو اعلانات تجارية ؟ أشفقت على قلبي الذي رحت أسمع دقاته وأنا أدير القرص لفتح الصندوق • هذه رسائل ، رسائل بالطائرة ! حملت بين يدي خمسة مظاريف مستطيلة تحمل اسمي وعنواني مكتوبين بخط مريد المرتب الواضح • وسرت ببطء في اتجاه السلم قاصدة غرفتي • كانت الرسائل بين يدي هكذا في مظاريفها المغلقة هدية غمرتني كالوردة التي حملها لي ابني تميم بعد ذلك بسنوات وهو بعد لم يتم العامين وقال : « أنا باحبك يا ماما ••• باحبك وعشان كده جبت لك وردة ! » خمس رسائل تصل امرأة من الرجل الذي تحب ، تصلها معا وفي الغربة • أيها أفتح أولا ؟ فتحتها جميعا معا • غمرتني الدهشة ، كانت قصائد ! غمرتني الدهشة كما لو كنت أجهل حقيقة أن مريد شاعر أو كأنني لم أتلق منه في سنوات سابقة عشرات القصائد الجديدة بالبريد وبدأت أقرأ :

كما يدخل الماء جوف الصخور

بقريتنا في فصول الشتاء

يشق له ألف درب بباطن أعلى الجبال
ويخلد فيها كثعلبة ترقب
ويصغي لوقع خطى الزارعين
وشق المحاريث للأرض عاما فعاما
ويخرج نهرا ونبعا ونافورة تسكب
ويهتف كالطفل :
ها قد أتيت ، تعالوا اشربوا
فيشرب منه اليمام وأهل القرى
وقوافل ضلت ، وسنجابة تلعب
وتنغمر الأرض بالبرتقال
وتحمرّ فيها الورود ، وتنضج كل الثمار الوليده
كذلك حبك يدخلني
ويشرق وجه القصيده !

بعد يومين وصلتني ثلاثة مظاريف أخرى تحمل باقي أجزاء القصيدة التي تتجاوز أبياتها الخمسمئة بيت • ولو ان القصيدة لشاعر آخر تحمل اسم امرأة أخرى لحملتها وإنطلقت من غرفتي كالسهم البشير الى الصحاب أطلعهم عليها • ولكن القصيدة كانت لي ، مرآة مسحورة مد لي مريد بها يده عبر المسافة وقال هي لك ! فهل هذه حقا أنا ؟ كانت رضوى القصيدة كزرقة النار صافية ومطلقه ، وقفت أمامها موزعة بين الزهو والحياء ولا زلت !

حملت القصيدة في قلبي ورحت أواصل الفعل ، في قاعات الدرس الموزع بين قسمي الأدب الانجليزي والدراسات الافرو ـ أمريكية ، وفي المكتبة ، ومركز الطلبة ، والبيت الذي أسكن فيه ٠

في قسم الأدب الانجليزي أتحرك داخل شحوب الألوان فالوجه الابيض غالب ، والردهات الطويلة مطلية بلون باهت ، وفي المساء حين نخرج من قاعات الدرس قاصدين باب الخروج تبدو هذه الردهات ، رغم التدفئة ، باردة موحشة ، قابضة ، لها في ضوء المصابيح الخافتة لون انسان يحتضر ٠

وعلى العكس من ذلك كان المبنى الذي يضم قسم الدراسات الافرو ـ أمريكية ، فالتدفئة هنا أعلى من العادي ، فلا أكاد أصل الدور الثالث حيث قاعات الدرس حتى أكون أتصبب عرقا ٠ الجدران مطلية بألوان زاهية منها الاخضر والازرق والبرتقالي وحتى الاسود فيها له بريق ٠ وبالمبنى فضلا عن القسم دار للحضانة لأطفال العاملين والطلبة ، والمركز البيئي الخاص بطلاب العالم الثالث ، والورش الفنية ٠ وكان مألوفا في هذا المبنى الجامعي اذن أن يشاهد أطفال صغار من أصل افريقي أو لاتيني وهم يصعدون وينزلون على الدرج ٠ ولم يكن غريبا أن يُسمع صوت ساكسافون أو طبلة ينبعث من الدور الارضي حيث الورش ٠ ورغم شانغو الكلب الوولف الكبير الذي يصطحبه أحد الأساتذة الى قاعة الدرس ويربطه بسلسلة الى النافذة أثناء المحاضرة فقد ألفت المكان ورحت أتحرك في ردهاته وقاعاته بتلقائية من عرف الشيء وارتبط به ٠

وان كان احتفاء الآخرين هو دائما أمر مؤثر في النفس فانه يكتسب في الغربة دلالة أكبر ، ولقد كانوا في هذا

القسم المختلف في جامعة نائية يحبونني ويحتفون بي لأنني أتيتهم من مصر • وأكد امكانية التواصل السريع بيني وبينهم احساسهم بأنهم وهم الأفارقة المقتلعون منذ قرون ينتمون بشكل من الاشكال لمصر وأنني وأنا المصرية بينهم لست غريبة عنهم •

كانوا يعتزون بانجاز مصر القديم والحديث • وجدوا في مصر القديمة وحضارتها أكثر الوجوه اشراقا للقارة التي ينتمون في الأصل لها ، وأمدتهم مصر عبد الناصر وحركة التحرر الوطني بسند مجدد • ولقد استندت النهضة السوداء في العشرينات التي ارتفعت أصوات المناضلين ابانها تنادي بحقوق السود وتحررهم الى حضارات القارة في مصر وأثيوبيا وممالك غرب إفريقيا ترد بها على أكذوبة أمريكا البيضاء القائلة بأن الأفارقة الذين حملوا قسرا من العالم الجديد هم بدائيون بلا تاريخ كانوا يعيشون في قارة مظلمة لم تعرف الحضارة •

وكان القسم ككل ذا توجه وطني تحرري واضح اختار له مؤسسوه اسم « قسم ديبوا للدراسات الافرو ـ أمريكية » نسبة الى ديبوا أبي الوحدة الافريقية الذي دعا اليها بدءا من عام ١٩٠٤ وناضل من أجلها بالفعل والكتابة ، وتعرض للاضطهاد في فترة المكارثية وظل بلا جواز سفر حتى طلبه نكروما من حكومة الولايات المتحدة رسميا بعد استقلال غانا • وكان الرجل حينذاك على مشارف التسعين وراءه تاريخ شخصي حافل كباحث ومبدع ومؤسس لم يخفض فيه رأسه لعاصفة الارهاب الامريكي وبقي يدعو لتحرر شعبه الاسود في امريكا وتحرر افريقيا من سطوة المستعمر وسطوة المستغلين من أبنائها حتى مات في غانا ودفن في أرضها •

٤

« انــه الثلــج ! » ٠

ندف صغير ناعم أبيض يتساقط في اتصال من السماء الى الأرض التي بدت مثل كعك العيد الذي ترشه أمي بعد انضاجه في الفرن بالسكر المطحون الناعم ٠ وأنا خلف زجاج النافذة أتابع سكون الارض في الأبيض موزعة بين فرحة التجربــة البكر وحزن الغريبة ٠

والشتاء يتوغل ولم يبق على نهاية الفصل الدراسي الا ثلاثة أسابيع ٠ وأركض لأفي بالتزاماتي الدراسية ، أركض الى قاعات الدرس والى المكتبة والى المطعم والى برينس هاوس ، أقرأ على استعجال ، وأكتب على استعجال ، وأحــاول عبر الاتصال التلفوني أن أعرف الشروط الأنسب للحصول علــى تذكرة للسفر أشتريها ولو بكل ما معي ، وكل ما معي أقل من أربعمئة دولار ولا زال جزء من قسط الجامعة غيــر مدفــوع طلبت تأجيله ٠ سأسافر ، هكذا قررت حتى لو لجــأت الى الاستدانة ٠

هكذا في صباح يوم شتائي قارص غادرت أمهرست برفقة

احدى الزميلات ، وجهتنا بوسطون • وبعد أقل من ساعتين من بدء رحلتنا وصلنا المدينة •

تركتني زميلتي في أحد الميادين العامة بعد أن وصفت لي الطريق الى فندق « ستاتلر هيلتون » حيث مكتب شركة الطيران التي أقصدها • كانت هذه هي المرة الأولى التي أغادر فيها أمهرست منذ وصولي اليها قبل ذلك بثلاثة شهور • وبدت لي البلدة ، وأنا أسير وسط ازدحام المدينة الكبيرة وضوضائها ، قرية جبلية صغيرة ونائية • منازل صغيرة مطلية باللون الابيض ، وسقوف قرميدية ، وشارعان أساسيان متقاطعان تتجاور فيهما الكنيسة وقسم الشرطة ومبنى المطافيء والمقهى والبار وفندق اللورد جوفري ومحل الزهور ومحل تجهيز الموتى والمكتبات وبعض المحلات التجارية • بلدة هادئة لها صخبها المميز لغلبة العنصر الطلابي على سكانها ، فحيث يتقاطع شارعاها الرئيسان كلية أمهرست وعند أطرافها الشمالية جامعة ماساشوستس وعلى بعد أميال قليلة ثلاث كليات أخرى •

دفعت بالباب الزجاجي ودخلت الى صالة فندق ضخم أناقة رواده تشي بالثراء • سألت عن مكتب الخطوط الجوية الأولمبية وصعدت • بعد نصف الساعة نزلت وفي حقيبتي تذكرة سفر من بوسطون الى أثينا ثم عودة الى بوسطون في رحلة مخفضة الثمن تنظمها الشركة في فترة أعياد الميلاد حتى يتسنى للمغتربين من اليونانيين زيارة أهلهم • دفعت بالباب الزجاجي مرة أخرى وخرجت الى الشارع وبي فرحة طفل خارج من باب محل الألعاب وقد حصل على اللعبة المحددة التي كان يريدها • فها هي التذكرة معي ثمنها ثلاثمائة دولار ، والطائرة تغادر بوسطون يوم ١٢/٢٣ وتعود بعد أربعة

أسابيع . لم يكن بالامكان تدبير شيء أفضل من هذا . سأكتب لمريد لكي يرسل لي تذكرة للسفر من أثينا الى القاهرة . ويتبقى معي أقل قليلا من مئة دولار تكفي مصروفاتي وشراء بعض الهدايا .

توجهت الى مقر القنصلية اليونانية للحصول على تأشيرة . وحين انتهيت من ذلك كانت الساعة تقارب الثانية بعد الظهر . بدا لي مشروعي للتعرف على معالم المدينة أو زيارة متحف من متاحفها غير ممكن بما انني كنت أنوي العودة الى امهرست قبل المساء . تناولت وجبة غداء سريعة ثم رحت أتسكع في الشوارع أتابع الوجوه وواجهات المحلات والبنايات الشاهقة ، ثم توجهت الى بارك سكوير حيث محطة الأوتوبسات المركزية واشتريت تذكرة ودخلت الى مقهى المحطة لتناول كوب من القهوة . لماذا تبدو كل هذه الوجوه بائسة هكذا ؟ كان معظم الجالسين في المقهى بسطاء الملبس تحمل وجوههم هذا التغضن المبكر الذي يميز وجوه الكادحين . تركت المحطة ورحت أتجول في المنطقة انتظارا لموعد الأوتوبيس . بجوار المحطة محل كبير بواجهته الزجاجية العديد من الصور الطريفة والتماثيل الصغيرة المضحكة موضوعها الجنس في الغالب . دفعني حب الاستطلاع فدخلت . سألني البائع :

ـ أية خدمة ؟

ـ شكرا ، فقط ألقي نظرة !

أحرجتني نظرة الرجل المتعضة فخرجت الى الشارع ، سرت بضع دقائق قبل أن أنتبه الى أنه شبه مقفر . أليس هذا غريبا في هذا الوقت ؟ ثم ان بهذا الشارع محلات تجارية على ما يبدو ، تقدمت أكثر . صف من المحلات الصغيرة تكتظ واجهاتها بصور عارية في أوضاع جنسية شائعة أو غريبة

ومداخل صغيرة تعلن لافتاتها عن عروض أفلام جنسية • طرأ ببالي أن هذا الشارع قد يكون جزءا من حي الدعارة بالمدينة فشعرت بقلق لوجودي هكذا وحدي في المكان • هل هو الخوف الذي أطعمناه في طفولتنا ويفاعتنا بأن هذا الجسد الأنثوي مهدد يُخشى عليه ؟ أم هو وعي المرأة النافرة بعيون رجال تتطفل على جسدها بالتملي الشره ؟ أم هو قلق الغريبة في مكان تجهل سنَّته وقانونه ؟ رحت أغذ السير عائدة الى محطة الأوتوبيس وقد فهمت فجأة لماذا نظر البائع لي هكذا حين قلت له بجرأة وبراءة ريفية صغيرة أنني « فقط ألقي نظرة ! » •

حين تحرك الاوتوبيس في طريقه الى أمهرست في الخامسة مساء أرجعت الكرسي الذي أجلس عليه الى الوراء قليلا وأسندت رأسي ومددت ساقي أمامي وأغمضت عيني ، آه لو أنني الآن جالسة هكذا في الطائرة المسافرة الى القاهرة !

قبل يومين من سفري كنت انتهيت من الدراسات المطلوبة مني • وفي صباح يوم شتائي بارد لم أنم فيه من الليل الا ساعات ثلاثا رحت أراجع ما كتبت علني أجد خطأ مطبعيا أصححه • ثم وضعت كل بحث في مظروف بني كبير يحمل اسم أستاذ المادة ، وغادرت البيت قاصدة قسم اللغة الانجليزية أولا لتسليم واحد منها ثم توجهت بعد ذلك الى قسم الدراسات الأفرو ـ أمريكية وأنا أمنّي نفسي بعد العودة الى البيت بنوم طويل لا يقطعه رنين منبه • ولكنني حين تركت غرفة سكرتيرة القسم وجدت نفسي أنزل الدرج وقد دبت فيّ حيوية عشرة قرود • ألم أنته بتسليم هذه الدراسات من فصل دراسي كامل ؟ ألن أكون في القاهرة بعد أربعة أيام أو خمسة على الأكثر ؟

تناولت كوبا من القهوة وعدت الى برينس هاوس واستعرت دراجة احدى الزميلات وقد قررت النزول الى المركز التجاري لشراء بعض الهدايا • تجاوزت برينس وأنا أجر الدراجة بجواري حتى وصلت لنهاية الشارع ثم انحرفت يمينا وركبت• وكأن الدراجة ، في الطريق المنحدرة من أعلى التلة ، كائن مسحور يسير على الارض طائرا • في طفولتي كانت لي دراجة كنت أحب ركوبها ، ومع سنوات المراهقة صار أبي يعترض على خروجي بها الى الشارع • وبقي ركوب الدراجة بالنسبة لي مرتبطا بمساحات الطفولة البريئة والثقة التلقائية في النفس التي صارت تخفت تدريجيا مع قلق المراهقة وشكوكها المتزايدة عما تستطيع تحقيقه • واذ تطير هكذا الدراجة بي أو أطير أنا بها أو يطير انحدار التلة بكلتينا تعود لي مشاعري الطفلية بالقدرة والتمكن والفرح المطلق بالوجود ونفسي •

« هل أنا دائما لا أحسب للعودة حسابا ؟ » سألت نفسي بشيء من نفاد الصبر وأنا مضطرة للعودة سيرا على قدمي لأن ركوب الدراجة صار مستحيلا مع صعود التلة وما أحمل من مشتريات • علقت الأكياس على مقود الدراجة وأمسكت بعلبة في يد وصرت أجر الدراجة في الطريق الصاعدة باليد الأخرى•

بعد يومين غادرت أمهرست برفقة أحد الزملاء كان في طريقه الى بوسطون ، وقد قررت أن أقضي الليلة فيها استعدادا للسفر منها صباح اليوم التالي • تركنا أمهرست بعد الظهر ، وكان الطقس دافئا نسبيا وممطرا • قطعنا الطريق في أكثر من ثلاث ساعات بسبب السيول ، وكانت غزارة الامطار وتساقطها المتصل على الارض والسيارات تغلف الطريق ببخار

ضبابي وتحدث صوتا رتيبا يتداخل مع أزيز مساحتي السيارة في حركتهما المتصلة ٠

وحين وصلنا أخيرا الى بوسطون كان الوقت مساء وليس في المدينة من أثر لأمطار بل هواء عاصف قارص ٠ أوصلني زميلي الى فندق ، دفعت حساب الغرفة مقدما واتفقت عبر التلفون على سيارة أجرة تحملني في الصباح الباكر الى المطار، ثم وضعت بعض القروش في البائعات الآلية وحملت كوبا ساخنا من القهوة بالحليب وقطعة كيك وعلبة سجائر وصعدت الى الغرفة ٠

في صباح اليوم التالي ذهبت الى مطار لوغان حيث حملتني الطائرة في رحلة داخلية قصيرة الى مطار كنيدي بنيويورك ٠ ورحت أقطع الساعات في انتظار اقلاع الطائرة اليونانية الى أثينا في السادسة مساء ٠ تجولت في المطار الواسع كمدينة صغيرة ، وتسكعت أمام بعض أكشاك الكتب والمجلات ،وتناولت الغداء في أحد محال الوجبات السريعة بالمطار ثم بحثت لي عن مقعد لا تحيط به ضجة استثنائية ٠

جلست أدخن ثم ملت برأسي الى الخلف الى ظهر المقعد ومددت ساقي أمامي ٠ لن ينادوا علينا لركوب الطائرة قبل ساعة ونصف أو ربما أكثر ٠ في المقعد المواجه لي كانت تجلس امرأة ممتلئة خمرية البشرة كامرأة من صعيد مصر ٠ بوجهها تلك الخطوط المميزة والسابقة للأوان في وجه امرأة كادحة ، كانت يداها أيضا تكشفان ذلك ٠ لماذا تبدو هذه المرأة مصرية الى هذا الحد ؟ دخلتني رغبة ملحة في أن أذهب اليها وأسألها كيف أنها لم ترني وأنا أجلس أمامها ٠ ألست أيتها المرأة السمراء الناطقة بالاسبانية من بلدي ؟ كنت أحدق فيها وأعرف

أنها من بورتوريكو · كل ما فيها ينطق بذلك ، وجهها ، ولغتها، وامتلاء ردفيها ووجودها الكادح في المستعمرة الامريكية الكبيرة · هي عائدة الى الجزيرة لا شك ، لأي خطب يا ترى ؟ أم هل هي زيارة للأهل والبلد ادخرت لها النقود سنة بعد سنة ؟ والمرأة تقوم من مقعدها ، هل أعلن عن قيام طائرتها ؟ تسير ببطء نسبي وأنا أغمض عيني فأرى امرأة أخرى · هل هو شبه بينهما استوقفني أم هو الذي بالتداعي حمل لي صورة تلك الأخرى الاصغر في السن قليلا ؟ امرأة من احدى قرى الدلتا تقارب الخمسين أو تجاوزتها · هي أيضا لها هذه البشرة الخمرية الصافية وشعر أسود لا يبدو منه الا الجزء اليسير من تحت منديل الرأس المزين بالأوية ، حاجباها هلالان في مطلع شهر قمري ، وفي العينين كحل عربي أزرق ، وتحت الشفة السفلى وشم أخضر · ولم أر أم فتحي الا وكانت جميلة تنبعث منها رائحة طيبة · فما الذي أتى بها الي الآن هكذا وأنا جالسة مغمضة العينين في هذه القاعة المكتظة بالمسافرين في مطار ج·ف· كنيدي ؟

وأحمل حقيبة يدي وأسير باتجاه النفق الواصل بين المبنى وباب الطائرة · وأجلس أخيرا على المقعد ولكنني بعد لا أميل بظهري للخلف ولا أمد ساقي أمامي ، أجلس معتدلة وأربط الحزام وأنتظر الاقلاع ·

والرحلة طويلة تقطعها الطائرة في عشر ساعات كاملة ، ورحلة الشتاء مزعجة تخض الجيوب الهوائية الطائرة خضا فيبدو في كل مرة وكأنها سوف تطب لأسفل ثم تهوي · أربك معدتي تكرار ارتجاجنا المباغت والمتكرر ، وزادني الارهاق وقلة النوم ضيقا حتى صرت أشعر بالاختناق في ظلام الطائرة التي

أخلد ركابها للنوم • أضيء المصباح الذي فوق رأسي فأشعر باختناق أكبر •

ثم بدأنا ندخل في مساحات الفجر ، بنفسج أزرق لا يدوم الا قليلا ، يفضي لنهار طالع بمزج من رمان وليمون وبرتقال• والمرأة اليونانية الجالسة بجواري والتي أمضت الرحلة نائمة دبت فيها الحياة فجأة وصارت تنظر من النافذة وتحدثني ، وتحدّث نفسها ، وتحدث من يجلسون أمامها وخلفها ، وتكرر ما بين عبارة وأخرى : « كم هي رائعة اليونان ! » وكان المشهد بالفعل رائعا ، وليس فقط في عيني المرأة العائدة للبلد بعد غياب • فالجزر غارقة في وهج شمسي كأن البلاد قدّت من ذهب أو كأن البحر شمس • فهل رأى اليوناني القديم بلاده هكذا من فوق قمة جبل فبدا له أن أبولو الفتى المتوهج الخصلات قادم اليه في مركبة من ذهب ؟ ولا يأخذني من المشهد الا الصخب المفاجيء لركاب الطائرة ، كانوا جميعا ، باستثناء اثنين أو ثلاثة ، يونانيين عائدين لقضاء العيد في بلادهم • في الليل خيّم السكون على الطائرة ، ناموا أو صمتوا برفقة الأحلام أو المخاوف • وعندما بدأت الطائرة تحلق فوق اليونان لم يبق أحد منهم جالسا على مقعده ، وأخذوا يتبادلون الحديث الصاخب ، ثم بدأوا يغنون معا والطائرة تستعد للهبوط والمضيفات يكررن الطلب بأن يجلس الركاب ويربطوا الأحزمة• وبدا وكأنهن ، وسط هذا الفرح العام ، يطلبن من الواحد أن يقيد روحه •

وعندما لمست العجلات أرض المطار دوى تصفيق الركاب وكلمات الاعجاب والشكر لقائد الطائرة • ورغم تعليمات المضيفات بالتزام الاماكن راح كل واحد منهم يفك حزامه وينهض من مقعده تهيؤا للنزول •

غادرت الطائرة يملأني شعور بالوهن وبأنني هشة ، هل هو الارهاق بعد ليلة بلا نوم أم هو الضوء الساطع لهذه الجزر وتألق الأبناء في حضرتها ؟ ربما كنت مرهقة من السفر الطويل، أو لعلها العودة الى مصر تفوق قدرة القلب الصغير •

حملتني وحقيبة سفري سيارة أجرة الى فندق متواضع لا يبعد كثيرا عن ميدان الدستور بقلب أثينا • كان عليّ أن أنتظر حتى صباح اليوم التالي قبل أن أشرع في بحث أمر سفري الى القاهرة • أردت أن أتحمم فلم أجد الا مياها باردة• غسلت وجهي ويدي وساقي ونمت ثم خرجت في جولة سياحية في المدينة • عدت ثانية ونمت •

حين خرجت الى الشارع صباح اليوم التالي كانت المحال التجارية لا تزال مغلقة ، وكذلك معظم المقاهي التي مررت بها • أردت أن أفطر ، لم يكن بالفندق الذي نزلت فيه مطعم ، وجدت مكانا تناولت فيه كوبا من الشاي وشريحتين من الخبز والجبن• المؤكد أن مكاتب شركات الطيران لا تفتح قبل الثامنة صباحا • أنهيت افطاري والساعة لم تتجاوز السابعة والنصف • رحت أتسكع في الشوارع وأنتظر • بدأت « بمصر للطيران » ، لا زال مكتبها مغلقا • درت على مكاتب الشركات الاخرى ، « الأولمبية » ، « اير فرانس » ، « آليتاليا » لم يكن لي تذكرة عند أي منها • بدا لي أن الأرجح أن يكون مريد قد أرسل لي بالتذكرة عن طريق « مصر للطيران » • أخيرا في التاسعة والنصف ذهبت الى مكتب الشركة فوجدته مفتوحا وسألت ان كانت هناك تذكرة باسم رضوى عاشور ، راحت المرأة تقلب فيما لديها من برقيات ثم قالت :

ـ لا •

ـ هل أنت متأكدة ؟

ـ متأكدة !

خرجت من مكتب « مصر للطيران » وقد اختلط ضيقي بالحيرة والتوجس والقلق · ترى هل مريد بخير ؟ لعل برقيتي لم تصله ، ماذا أفعل الآن ؟ هل يكفي كل ما معي لشراء تذكرة ذهاب فقط الى القاهرة ؟ عليّ أن أحسب أجرة الفندق والسيارة التي تحملني الى المطار · آمل أن يكون مريد بخير · فكرت أن أجلس في أحد المقاهي لكي أفكر في هدوء في الخطوة التالية · في الطريق لمحت لافتة « سويس اير » التي فاتني دخول مكتبها · دخلت وتوجهت بالسؤال لشاب وسيم صغير السن في زي المضيفين الازرق الداكن · قال :

ـ ليس هناك تذكرة باسمك · من يدري لعل برقيتك الى القاهرة لم تصل ·

سكت برهة ثم قال :

ـ أستطيع ارسال برقية على التلكس الى مكتبنا في القاهرة فيتصلون تلفونيا بالشخص الذي سيدفع لك ثمن التذكرة · وأنت من ناحيتك تستطيعين الاتصال تلفونيا بالقاهرة لتأكيد الأمر ·

ووصف لي الشاب مكان مكتب التلفونات الدولي وقلت له:

ـ هل أعود لك بعد ذلك أم أتصل تلفونيا ؟

ـ الساعة الآن العاشرة ، طائرتنا للقاهرة تقلع في الخامسة ، اذهبي الى المطار قبل الثالثة · اذا وصلنا رد فسيعطونك تذكرة السفر هناك وتسافرين مباشرة ، لدينا أماكن ·

كان الشاب ودودا للغاية ، شكرته واتجهت الى مكتب التلفونات حيث اتصلت ببيت أصدقاء لنا في القاهرة وطلبت أن يبلغوا مريد بأمر التذكرة • وعرفت أن برقيتي لم تصله وأنه كان قلقا لعدم وصول أية أخبار مني •

قلت لموظف الفندق وأنا أدفع له أجرة الليلة التي قضيتها : « لا تعجب لو وجدتني أعود اليك بحقيبة السفر بعد عدة ساعات ! » وضحكت •

ولكن قلبي كان ثقيلا ، وكذلك الحقيبة ، وأنا أسير الى مفترق طريق يجعل حصولي على سيارة أجرة أيسر •

في المساء يحتفلون بليلة عيد الميلاد ، والشوارع صاخبة ومزدحمة وسيارات الأجرة قليلة • وأنا هذا المساء قد أدخل بيتي عائدة لألفة الوجوه والاصوات ، وقد أبقى هنا أمر من شارع موحش وبارد أنظر فيه الى النوافذ الكثار المغلقة دوني على فرحة عيد صغير لأصل الفندق وأصعد الى حجرة باردة يؤرقني في ضوئها الليموني الشاحب عبء الساعات • بلعت الغصة في حلقي ومعها تيار شعوري الكئيب ، لماذا استباق الأحداث ؟ وسألت سائق التاكسي المنطلق بسرعة مقلقة عن المدة التي تستغرقها الطريق الى المطار •

راح الشاب الذي يعمل لفرع شركة « سويس اير » بالمطار يكتب في تذكرة السفر التي سيعطيها لي ، ورحت أنا في فرحي ، أنظر اليه بحب وقد بدا لي بشيرا يونانيا قديما يأتي لأهل المدينة بالخبر المفاجيء السعيد • وحين سلمني التذكرة شكرته واتجهت لتسليم حقيبتي وختم الجواز • لم يبئسني اعلان تأخر اقلاع الطائرة لمدة ساعتين • فالليلة أنا في القاهرة

والليلة عيد ، والمرأة لا تضحك وحدها بلا سبب ولا ترقص هكذا فجأة وسط المطار المكتظ بالمسافرين الا اذا فقدت عقلها ، وأنا والله عاقلة ولكني أضحك ، وبي رغبة تلح في الرقص واعلان الفرح • أجلس لآكل شيئا واحتسي فنجانا من القهوة ولكني أجد السكون على كرسي صعبا وابتلاع الاكل في هدوء أصعب ، أقوم أتجول في المطار أشتري اناء فخاريا صغيرا بني اللون مزينا بمثلثات وخطوط سود ، انه جميل جميل جدا ، يصلح لمكتب مريد يضع فيه أقلامه • أيها الصانع اليوناني سلاما ، أيتها اليونان التي لم أرها سوى لساعات وبقلب مثقل، سلاما والى عودة !

تنبهت الى أن الرحلة لا بد تقارب نهايتها والمضيفة تحمل سلة بها فوط قطنية معقمة ومبللة بالماء الدافيء • ابتسمت لي المضيفة وناولتني واحدة مسحت بها وجهي ويدي ، قمت الى دورة المياه لاصلح من هيئتي قبل بدء الطائرة في الهبوط • « ترى كيف سأبدو لهم بعد هذه الشهور من الغياب ؟ » تساءلت وأنا أقف أمام المرآة التي تعلو الحوض المعدني الصغير في دورة المياه • أنا الان أنحف قليلا ، شعري لا زال قصيرا لا يغطي اذني ، لماذا وجنتاي متوردتان هكذا ؟ ليستا متوردتين بل ان لونهما أحمر ، آمل ألا أكون مريضة ، كحَّلت عيني وصففت شعري وعدت الى مقعدي •

ربطنا أحزمتنا ، وبدأت الطائرة تستعد للهبوط • وعلى البعد بدت القاهرة كمدينة مستحيلة من عناقيد ضوء مستوحد وسط بحر الظلام الصحراوي • لم أر المدينة من الطائرة في الليل قط • وأنا صرت اثنتين : واحدة مقيدة الى مقعد طائرة محلقة في سماء المدينة ، وأخرى على أرضها مثبتة فيها كجذع

شجرة أو كحجر في جدار · وعيناي الناظرتان عبر زجاج النافذة الصغيرة تحدقان عبر الظلام والضوء بحثا عن النيل الذي لا تراه وتعرف أنه هناك · وتقترب الطائرة من ممرات المطار حتى تلامس عجلاتها الارض لتندفع في سرعة مفاجئة ثم أخيرا تتوقف وأقوم من مقعدي ، ألبس معطفي بهدوء كأن باب الطائرة لن يفتح بعد لحظة ، كأن الحاجز الحديدي للمنطقة الجمركية لا يفضي للمدينة والأحباب · أسير بهدوء مع الآخرين باتجاه باب الطائرة ··· كأن قلبي لا زال معي ·

٥

الطريق نفسها والحركـة الوئيدة نفسهـا · أجلس في الظلام منكمشة أحدق في الحركة الرتيبة لمساحات المطر على الواجهة الزجاجية العريضة للأوتوبيس · أمطار غزيرة وليل موغل · لم يعد في الأوتوبيس الا السائق وأنا ، وهذا المطر لا ينتهي ، ولكن الطريق التي بدت عقابا أبديا توشك أخيرا على الانتهاء · أقوم من مقعدي وأقف بجوار السائق أقول له :

ـ الوقت كما ترى متأخر والطقس رديء ، هل يمكن حين تمر من الشارع القادم أن تنزلني أمام مساكن الطلاب ؟

ـ سأقف في المحطة !

لم يخطر ببالي قط أن السائق قد يرفض طلبي ، ولكنه يمر من أمام برينس هاوس ويتجاوزه ثم ينحرف يمينـا الى شارع آخر ولا يتوقف الا في المحطة المقررة · ينزل ويفتح بطن السيارة ويسلمني حقيبتي دون أن يفتح أحد منا فمـه كأننا في مشهد تمثيلي صامت ، ثم يركب الأوتوبيس ويمضي ·

لا بد اذا مما ليس منه بد · أحمل حقيبة السفر في يد وحقيبة يدي في اليد الأخرى وأسير بحذر شديد · الارض

مغطاة بطبقة زجاجية رقيقة من ماء المطر المتجمد بفعل البرودة ، والمطر المنهمر صار بردا ، وأنا أخشى أن تزل قدمي فأسقط على ظهري · الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل · أسير بضع خطوات ثم أقف واضعة حقيبة السفر على الارض ثواني ثم أواصل ·

في الأوتوبيس ، في الطريق من بوسطون ، بدا لي بؤسي مكتملا · كنت شديدة الارهاق بعد يوم طويل من السفر بدأته قبل السادسة صباحا في انتظار السيارة التي تقلني مع غيري من الركاب من مقر الشركة الأولمبيـة في أثينا الى المطـار · أقلعت الطائرة في التاسعة صباحا ووصلنا نيويورك بعد أكثر من عشر ساعات من الطيران المتصل · هبطت الطائرة متأخرة ورحت أركض لاستلام حقيبتي والانتقال الى مبنى آخر لكـي ألحق بالطائرة المسافرة الى بوسطون · أقلعت الطائرة ثـم هبطت وحملتني سيارة أجرة من المطار الى محطة الأوتوبيسات المركزية حيث ركبت آخر السيارات المغادرة الى أمهرست ·

وأخيرا وصلت الى الباب الخلفي لبرينس هاوس · أخرجت المفتاح من حقيبتي فتحته ودخلت · وأنا أصعد على الدرج الى الدور الثاني حيث حجرتي بدت لي الجدران المصبوبة مـن الاسمنت المخلوط بالرمال والحجارة الصغيرة رمادية بشكل قابض ، « غريب أنني لم ألحظ مدى كآبة هذه الجدران من قبل ! » قلت لنفسي وأنا أتجه عبر الممر الطويل الى حجرتي · ولكنني قلت أيضا وأنا أدير المفتاح في باب الحجرة : « على الأقل هنا تدفئة والارض مغطاة بالسجاد لا تثير الخوف من السقوط المفاجيء وانكسار ساعد أو ساق » ·

ولكن ما ان أضأت النور ورأيت الحجرة حتى رأيت أيضا

أن زيارتي للقاهرة قد صارت ورائي ، ورائي مباشرة في وقت يتعين عليّ فيه أن أتقدم في الطريق الممتدة في الاتجاه المعاكس ... على الأقل لشهور طويلة قادمة . « الآن عليّ أن أنام ! » قلت وأنا أقلب في الرسائل التي وصلتني في غيابي واستلمتها زميلتي ووضعتها بعناية على مكتبي قبل أن تسافر هي الأخرى لقضاء العيد مع أهلها . « الآن عليّ أن أنام » . كررت لنفسي وأنا أنظر الى الساعة التي تجاوزت الثانية . بدا لي جو الغرفة خانقا . فتحت النافذة . « ليت زميلتي هنا ! » جلست على السرير دون أن أبدل ملابسي وأنا أفكر أنه مرة أخرى صار عنواني ٢٢٤ برينس هاوس ، جامعة ماساشوستس .

رحت أعيد ملابسي من حقيبة السفر الى الدولاب وأنا أفكر أنه بهذا تكون دائرة السفر قد أغلقت ذهابا وعودة ولم يبق أمامي سوى بدء جديد . أخرجت شالين قطنيين أحدهما برتقالي والآخر أزرق قلت وأنا أطويهما : البرتقالي لسوزي والأزرق لأنّا ، ووضعتهما في أحد الادراج . ما ان أغلقت الدرج حتى بدا لي أن شيئا من رائحة البخور ما تزال عالقة بهما . كنت قد اشتريتهما قبل سفري بأيام من خان الخليلي . فتحت الدرج ثانية وانحنيت عليهما . التبس الأمر عليّ ، لم أعرف ان كانت الرائحة بأنفي أم فيهما . لماذا تباغتني رشاقة مئذنة مسجد الحسين في كل مرة أراها كأنني لم أرها أبدا من قبل ؟ ولماذا يعاودني الاحساس نفسه بأنني منفية من تاريخ الأزهر كلما لمحت أفاريزه ومآذنه ولو في الخيال ؟ جلست على حافة سريري ، عند العامود يجلسون ، كل مجموعة تحيط بأستاذها ، تنصت اليه ، وتملأ دلاءها وتروح الى جفاف الارض

ترويه • وأنا الحبيسة في تـاء التأنيث لـم تخط قدمـاي العاريتان أبسطة المسجد الألفي الا كزائرة غريبة ، ولا استند ظهري الى عامود رخامي ببـاحته ، ولا قلت ظهيرة صيف في ظلّه أحلم بالممكن والمستحيل ، ولا دعوت مع الداعين لنصرة قائد في الحرب أو بسقوط طاغية من الحكام • قلت هـذا الألفي تاريخ مغلق دوني •

قمت لأفتح باب الحجرة ، كانت احدى زميلاتي بالبيت جاءت تسلم عليّ • ذهبت وعدت الى حقيبتي أعيد ما بها من ملابس الى الدولاب ، وحين انتهيت أقفلتها ووضعتها تحـت السرير • الآن علي أن أرسل بالأفلام للتحميض • أمسكـت بثلاثة مظاريف ، كتبت عليها عنوان مكتب تحميض الصور • بعد أسبوع أو عشرة أيام على الاكثر تصل الصـور بعـد تحميضها • صور لي ولمريد ولأصدقائي ، صور ونحن نجلس بجوار النيل ونحن نعبر الطريق ونحن في البيـت ، صـور التقطتها في أثينا لمدرجات مسرح ديونسيوس وللأكروبوليس ولأعشاب خضر يانعة تنبثق من بين أحجار أرضية المعبـد العتيق ، صور للشمس الغاربة على أعمـدة معبـد الالـه بوسيدون الـه البحر في رأس سوينون حيث لقـاء البحـر الأبيض ببحر ايجه • كيف ستبدو اللحظات والمشاهد وقـد تثبتت نهائيا داخل الصور ؟

كان معي آلة تصوير أصغر من حجم الكف ورحت أصور بها المشاهد في فرح طفولي ليس فقط لأن الآلة كانت جديدة ، ولكن أيضا لأنني كنت فرحة ومقبلة • رغم ذلك لم أجرؤ على تصوير شيء من معرض الغنائم بأرض المعارض بالجزيرة حيث عرضت الصواريخ والدبابات التي خلّفها الاسرائيليون شرق

القناة ، وحيث شيد نموذج مصغر من خط بارليف يشرح عليه جندي أسمر صغير السن خطوات اقتحام الجنود المصريين للساتر الاسرائيلي ٠

بدت الدبابات ، في ضوء شمس ساطعة ، لامعة ومتوهجة وقد اعتلاها عشرات الاطفال بملابس زاهية وراحوا يلعبون في صخب ٠ وكأن الدبابات هي أرجوحات العيد الملونة والمزينة بالشرائط الورقية التي تنصب في المناسبات في الساحات الشعبية ٠ والجو الاحتفالي في المكان يصل للقلب فينقسم ، هذا نصيب الحزن وذاك للفرح ورجال الرماد الجوف يعلقون الأوسمة ويقايضون دم الجنود وتاريخ البلاد بحفنات من القش تصلب أعوادهم المتهاوية ٠ قال صديقي :

ـ احتفظي بشيء من مرارتك للغد ، فالبقية تأتي !

كان مريد قد احتفظ لي بكل الجرائد التي صدرت في تلك الفترة ٠ ومن عشرات الأعداد التي وضعها أمامي لم يكن قد وصلني في أمهرست الا عددان من « الاهرام » بعد أكثر من شهر من صدورهما ٠ اطلعت عليهما بالمكتبة التي كانت تصلها الجريدة بشبه انتظام في الظروف العادية ٠ كان الوقت مساء والمكتبة مضاءة بمصابيح النيون وأنا أقرأ بتوجس نص خطاب للسادات ٠ انتهيت من قراءة الجريدة وقد تمكن مني خوف شديد ، غادرت مكاني وقبلتني باب المكتبة للخروج ٠ سمعت صوتا يكرر اسمي ٠ انه زميل مصري من زملائي ، بادرني :

ـ خير ، هل أنت مريضة ؟

ـ كنت أقرأ الأهرام ٠ يقول « ياخدوا عشرة كيلو من عندي ! » ٠

ـ من الذي يقول ؟

ـ السادات ، كنت أقرأ خطابه • انه يتكلم عن الارض ، كأنها ماله الخاص يتصرف بها كما يحلو له !

دعاني زميلي لاحتساء كوب من القهوة ولكني اعتذرت ، فقد كنت أريد العودة الى حجرتي لكي أختلي بنفسي وأحاول أن أفهم اذا كان ما قرأت هكذا مخيفا أم أنها الغربة تتضخم الأشياء فيها •

ولم تكن الغربة السبب • قال لي مريد : « منذ ألقى السادات خطابه في ١٦ اكتوبر يعلن وقف إطلاق النار واستعداده للتفاوض ، بدا واضحا معنى الحرب وفي أي سياق اتخذ قرار خوضها • قلت لأصدقائي هنا ونحن نشاهده يلقي خطابه في التلفزيون انني أشم رائحة كريهة فقالوا انني سريع الانفعال ، أبالغ في كل شيء • ويوم ١٨ التقيت بصديق من الكتّاب فبادرني قائلا : « أليس ما حدث يا مريد رائعا ؟ » فقلت له : « انه مخيف ! » قال : « لا تكن غرابا ! » • فقلت : « أرى ما يستحق أن أنعق عليه ، فليكن ، أنا الغراب ! » •

وألبس معطفي وأغادر برينس هاوس أستنشق بعض الهواء البارد فالقلب ثقيل والعقل مثقل • أسير في الشوارع الشتائية العارية الا من ثلوج متراكمة على الجانبين حتى أصل الى مركز البلدة ، وأدخل الى أول مقهى في طريقي ، أجلس على أحد الكراسي العالية وأسند ساعدي على العارضة الخشبية الممتدة ، وأطلب من النادلة كوبا من القهوة ، أفتش في جيوبي لعلي أجد قرصا منسيا من الاقراص المسكنة لآلام الرأس ، وأضع يدي أمامي أحدق في الخاتم المعدني الذي اشتريته من معرض الغنائم وقيل لنا انه من حطام الطائرات

الاسرائيلية ، أحدق فيه في بنصر يدي اليسرى ملاصقا لخاتم انزواج وأنتظر كوب القهوة الامريكية ٠

بعد يومين من وصولي ، بدأ معظم الطلاب يرجعون الى قواعدهم للانتظام في فصل الربيع الدراسي الممتد من بداية فبراير حتى نهاية مايو ٠ وعاد للحرم الذي بدا قبل يومين مقفرا شديد البرودة صخب الوجود الطلابي ٠ وفي اليوم المحدد للتسجيل في « الكورسات » عم المكان حالة من التيقظ والحيوية تشارف الفرح ، هل هي حيوية هذا العدد الهائل من الفتيان والفتيات الذين يثرثرون ويتضاحكون ويتجادلون أم أنها بهجة اللقاء بالصحاب والأماكن أم هي البدايات هكذا دائما ؟ الطلاب يروحون ويجيئون في ممرات الحرم وردهات المباني ويحتشد عدد كبير منهم في المبنى المخصص للتسجيل يقفون في طوابير، كل في انتظار دوره ٠

هذا الفصل الدراسي أيضا سُجلت في أربعة « كورسات » « كورسان » في الأدب الامريكي الاسود و « كورس » في الأدب النيجيري و « كورس » في نظرية الأدب الرومانسي ٠ ملأت الاستمارات وسلمتها ثم اتجهت الى المبنى المخصص لبيع الكتب المقررة ٠ أخذت ما يخصني من كتب وبعض الكتب الأخرى أيضا لم أستطع مقاومة اغراء شرائها ، ووقفت في الطابور في انتظار دوري لدفع الثمن ٠ الكتب المصفوفة على أرفف خشبية وعلى الارض يعلو كل مجموعة منها لافتة تحمل اسم القسم ورقم « الكورس » والمكان تعيدني الى محل بيع الكتب بالمدرسة التي كنت أدرس بها وأنا طفلة ٠ في الدور الأرضي محل كبير يبدو ، وهو الممنوع علينا دخوله والمليء

بالكتب الجديدة والكراسات والأقلام والألوان ، قبوا سحريا مستحيلا ، نقف عند أعتابه نلمح من شباك له قضبان حديدية بعض كنوزه ، ونطلب هذا الكتاب أو ذاك لشرائه • وفي كل عام ، قبل بدء السنة الدراسية ، يقف أولياء أمورنا في طابور طويل بالدور الأرضي أمام عارضة خشبية تسد بـاب المحـل ليشتروا لنا الكتب المقررة • يدفع أبي ثمن الكتب • وأعود فرحة الى البيت بحقيبتي الجلدية وقد انتفخت بالكتـب ذات الرائحة المميزة • في البداية كانت الصور هي التي تستهويني، ثم عاما بعد عام أخذت الصور تقل ورحت أروّض نفسي على قبول الكلمات التي بدأت أفك رموزها • ولكن دائما ، سواء توفرت الصور أو غابت ، كنت أحب رائحة الكتب الجديدة حين أقلّب صفحاتها فتصل الرائحة تلقائيا الي أو أقرب أنفي قاصدة من الورق • وللكتب القديـمـة أيضا رائحـة نفاذة ، تختلط بذرات التراب في الغالب ، تملأ أنفي وأنا أبحث في العتمة النسبية بين الرفوف المثقلة لمكتبة جامعة عين شمس أو جامعة القاهرة أو الجامعة هنا • ولكن هذه الرائحة مختلفة ، أحبها وهي تنفذ الآن الى أنفي ورئتي ، وأضع الكتب المقررة التي اشتريتها في كيسين بنيين كبيرين من الورق المقوى ثم أخرج الى الطريق •

كنت لا زلت أتأمل كتبي الجديدة المبعثرة حولي فرحـة بامتلاكها حين دق باب حجرتي ودخلـت احدى صاحباتـي البورتوريكيات صاحبة هذا الصخب اللاتيني المحبب ، وقالت بلهجة آمرة :

ـ لا تتناولي عشاءك الليلة ، لأننا سنتعشى بالمجان !

قلت لها ضاحكة :

ـ هل معنى ذلك أنك اكتشفت ملجأ لرعاية الطلاب ؟

ـ مطاعم الجامعة مفتوحة بدءا من اليوم ، ولكن المشرفين لن يطالبوا أحدا ببطاقة الاشتراك ، لأن الادارة لم تنته من اعداد البطاقات • ونحن لا ننوي الاشتراك ، ولكننا سنذهب لتناول وجبة بالمجان • موعدنا الخامسة •

وقبل أن أفتح فمي كانت قد أغلقت الباب واختفت •

في الخامسة نزلنا من برينس هاوس متوجهين الى المطعم الأقرب للبيت • كنا عشرة طلاب من ستة بلدان مختلفة جمعتنا الغربة والصحبة وقرار دعوة أنفسنا على العشاء على حساب ادارة الجامعة • وكانت فكرة الأكل بالمجان في الولايات المتحدة حيث كل شيء يكلف نقودا ، كفيلة باثارة حالة من الفرح الطفلي العام • قالت احدى الصديقات : قلت لتريزا البولندية أن تأتي معنا فأبدت دهشة شديدة وقالت لي : لا يصح أن نفعل ذلك • هذه سرقة ، هل تصدقون ! وكانت دهشة الجميع بسلوك تريزا لا تقل عن دهشة تريزا بسلوك الجميع •

وقفنا في انتظار دورنا في موكب مستقل بذاته داخل الصف الطلابي الطويل ثم حمل كل وجبته وجلسنا حول مائدة كبيرة اتسعت لنا جميعا •

في الفصل الدراسي السابق كنت أتناول في مطاعم الجامعة وجبتين يوميا باستثناء أيام السبت والأحد ثم صرت ، بعد أكثر من ثلاثة شهور من الأكل فيها ، لا أطيق دخولها • تبئسني جلستي وحدي وأنا أتناول الأكل كأنني محكوم عليّ بالعزلة ، وتستفزني الوفرة غير العادية للأكل وكمية الراجع منه الذي يلقى به في القمامة • ولكنني وأنا جالسة بين هؤلاء

الصحاب صرت مثلهم فرحة ومقبلة وصاخبة • وكان في جلوسنا هكذا معا وعدا تلقائيا بتآزر ، كلنا في وحشة الغربة نحتاج له • لم يقل أحد منا شيئا عن ذلك ، الا أنه يبدو أننا جميعا التقطنا ذلك الوعد وتشبثنا به ، فرحنا بعد ذلك كل أسبوعين أو ثلاثة ، أو كلما جدت مناسبة ، نقيم حفل عشاء جماعي في احدى الحجرات المخصصة للدراسة في برينس هاوس • نلصق المكاتب في بعضها فتصبح مائدة ممتدة كموائد الأفراح ، ننسق عليها الأطباق والاكواب الكرتونية والملاعق والشوك والسكاكين البلاستيك وفوط الورق ، ووردة هنا أو هناك ، ثم يدخل صاحب الدعوة أو صاحبتها مع مرافق أو مرافقين حاملين صواني الأكل الساخن من المطبخ • موكب صغير يلقى التهليل والبشر • هذا الأكل المطهو في ورق الموز ، وذاك الروم البورتوريكي الابيض الممزوج بماء جوز الهند وعصير الاناناس جغرافية تدعونا ، ندخل اليها بصحبة الأبناء وننتهي • وهذه البامية المطبوخة باللحم والطماطم ، وتلك الحلوى الشرقية أعدها في زهو الجدة تطبخ للأحفاد ـ أنا التي لم أحب الطهو يوما ـ وأعرف وأنا أحملها لأضعها على المكاتب المتلاصقة أنني أمنح نفسي في الغربة ،وأمنحهم، مساحة من الوطن البعيد أسكن اليه ويسكنون •

٦

مارس في البدء ، ومريد يكتب لي من القاهرة عن خطى الربيع والصيف فيه • وأنا هنا أستيقظ في الصباح أشهد تساقط الندف الثلجيــة الناعمــة والارض لا زالت تسكــن الابيض ، أراقبها من خلف الواجهة الزجاجية لحجرتي ويفاجئني أنني أحب المشهد • أغسل وجهي وأشرب قهوتي وألبس معطفي وأذهب • هذه المساحة الممتدة ذات المباني الكثيرة التي بدت لي ساعة وصولي كمتاهة اغريقية أستعيض فيها عــن خيط آريان الأسطوري بخريطة للجامعة تعرّفني بالجهات والأماكن ، صرت الآن أعرفها وآلفها ، من العمارات الحديثة المتجــاورة المسماة بالأبراج لعلوها الشاهق والتي يسكنها آلاف من الطلبة والطالبات في الجنوب الغربي من الحرم ، الى المساكن الطلابية ذات السقوف القرميدية والتي لا يتجاوز أي منها الاربعة طوابق في الشمال الشرقي ، وبينهما تمتد الجامعة بمبانيها المتعددة التي أنشئت على مدى عشرات السنين منذ تأسيسهــا فــي منتصف القرن الماضي •

حين وصلت الى الجامعة أواخر الصيف بدت البركة في

قلب الحرم الجامعي كوجود خيالي فزٍّ في حكاية من حكايات الاطفال ، تنعكس في صفحتها المترجرِجة صورة البجع السابح فيها ، والشجر المحيط بهـا ، والكنيسة الصغيرة بسقفهـا القرميدي الداكن وبرجها المدبب · ولكن ماء البركة ، فـي صقيع الشتاء لا يعكس الا بياضه · والكنيسة الحجرية تغطي سقفها وبرج ناقوسها الواحد الثلوج ، وراحت عن جدرانها الرمادية الداكنة خضرة اللبلاب الذي لم يبق منه الا فروعه الجافة تلتـف صاعـدة حول الحجارة العتيقـة · الكنيسة و « الكلية الجنوبية » المواجهة لها والمبنية بذات الحجارة هما الأصل في المكان وأقدم ما فيه ، أما المكتبة المجاورة فهي أحدث ما في الحرم الجامعي ·

بناء شاهق يجرح خصوصية المكـان بشكله التابوتـي المنتصب ، وتتنافر حداثته المعمارية وطوابقه الستة والعشرون مع كل ما يحيط به · قالت احدى الصديقات بخبث ساخر :

ـ انه ولع المهندس برموز الذكور !

فقلت لها وأنا أبتسم :

ـ بل هو الولع الامريكي بأفعل التفضيل ، تماما كاللافتات المعلقة في أسفل بناية الأمباير ستيت بنيويورك : « هذا المبنى أعلى من كذا ، وأكبر من كذا ، وبه أكثر من كذا ! » من المؤكد أنهم ليسوا بحاجة لمكتبة من ستة وعشرين طابقا ولكنهم بحاجة لأن يقولوا لدينا أعلى مكتبة في المنطقة ، أو في شمال شرق البلاد ، أو في البلاد كلها !

كان مبنى كريها فعلا يثير علوه الشاهق دوامة هوائية مقيمة تجعل المرور بجواره أمرا مزعجا • أما من الداخل فكان بالمكتبة العديد من التسهيلات ، منها توفر عدد هائل من الكتب والمراجع والدوريات وحتى استعارة أي عدد من الكتب في نفس المرة ، وتوفر آلات التصوير الالكتروني وإمكانية التصوير بقروش زهيدة ، ثم سهولة الحصول على المواد غير المتوفرة في مكتبات جامعات أخرى أو المكتبات العامة عبر قسم متخصص ، وذلك بطلب استعارتها مدة محددة أو الحصول على نسخة مصورة منها •

قلت لنفسي وأنا أنتظر المصعد ليحملني الى الدور الارضي بالمكتبة : ترى أي زمن جائر هذا الذي يجعلني أقارن بين هذا التابوت الحجري وذاك الآخر العتيق كجذع شجرة طاعنة في السن يحمي في دكنته خشونة نسغنا الحي ؟ وأرى المبنى ذا المعمار الاسلامي كما يلوح لي وأنا أقترب من ميدان باب الخلق • ثم تأتيني رائحته الرطبة المميزة ، ودرجه المتآكل ، ومصابيح النيون التي تضيء ممراته وقاعاته صباح مساء ، والمصاحف المفتوحة على صفحات منسوخة بماء الذهب والمعروضة في الممر الطويل الذي يضم الفهارس ، ودورة المياه التي سقط الطلاء عن جدرانها والتي كلما دخلتها عدلت عن استخدامها وعدت أدراجي ملاحقة برائحتها الكريهة • وأعطي للشاب الامريكي المسؤول عن الاستعارة الكتب التي أريدها وبطاقتي فينجز الأمر في دقيقتين عبر الشاشة الالكترونية الصغيرة التي أمامه ، ويعيد لي الكتب ، وسرعة الرجل تنكأ الجرح وتقلب مواجع الانتظار الطويل لكتاب ، والبحث المضني بين أرفف مكتبة جامعية لم يمسح الغبار منذ شهور عن كتبها،

وارتباك الفهارس وسوئها . دفعت بـاب المكتبة الزجاجـي وخرجت متجهة الى غرفتي في برنس هاوس وليس في رأسي سوى شبه عبارة تتكرر : « أي زمن جائر ... » تجـاوزت البركة والكنيسة الصغيرة ومبنى الادارة حين توقفت فجـأة وقلت : « أنصفنا الزمان أم جار علينا ، ليست المسألة ، المهم أن حملنا في الزمان ثقيل ! » .

وضعت الكتب في حجرتي ثم عدت من الطريق نفسها مرورا بمبنى الادارة والكنيسة والبركة والمكتبة ، وفي نيتـي تناول وجبة غداء سريعة بمركز الحرم حتى أكون في قسم اللغة الانجليزية قبل الثانية استعدادا للذهاب الى درس النظرية النقدية . كان الرجل الامريكي العجوز ذو الجسد النحيل قد اقترح في لقائه الاول بنا ـ نحن الطلاب الخمسة المسجلين في « كورسه » ـ أن ننقل لقاءنا الأسبوعي الى بيته توفيرا لقدر أكبر من الهدوء والألفة . وهكذا صرنا نلتقي أسبوعيا في القسم ثم ننتقل معا في سيارات ثلاث : سيارة الأستـاذ وسيارتين من سيارات الطلاب عبر طريق جبلية متعرجة تخرج بنا من البلدة وتفضي في النهاية الى بيت الأستاذ فندخلـه ونجلس حيث أعد كل شيء لراحتنا : مقاعد ذات طراز قديم وثير ، مدفأة في الحائط تحترق الأخشاب فيها مثيرة دفئـا استثنائيا في الغرفة الصغيرة ، وغلاية كهربائية كبيرة للقهوة حولها أكواب من الكرتون وطبق من أكياس ورقية صغيرة من السكر . يجلس « البروفيسور » وحده على أريكة وأمامـه مائدة مستطيلة تحمل أوراقه وكتبه ويروح يتحدث بصـوت

هادیء خافت ، يربط ويقارن ويطرح التساؤلات · والحق أن الرجل كان متمكنا في تخصصه ، ولكن الحق أيضا أن مشهد الثلوج في الخارج ، ودفء الحجرة ، وسخونة القهوة بعد وجبة الغداء ، وصمت المكان المطبق الا من صوت احتراق الخشب في النار ، وقرقرة الغلاية كانت كلها تؤكد أن هذا وقت للقيلولة · وعبثا أحاول أن أتابع ما يقوله الرجل الى نهايته فلا أفلح ، وصوته لا يحول دون رغبتي الملحة في النوم بل يؤكدها · وحين أنجح في مغالبة نعاسي أظل غير قادرة على التركيز فيما يقوله الاستاذ ، ألحق به في عبارة فتحملني العبارة وحدها الى طريق مغاير ينأى بي عن عباراته اللاحقة · وهو يتحدث عن ما نقله « كولريدج » عن المثاليين الالمان وأنا أستعيد مقاطع من « قصيدة الملاح القديم » · أنصت باهتمام الى فاتحة ما يقول حول ما في نظرية « شيلي » النقدية من ثغرات ثم يروح عقلي يطرح القضايا النقدية التي تشغلني وأجتهد في الوصول الى تعريف خاص بي لطبيعة الشعر ووظيفته · وكدت أضحك بصوت عال حين نظرت يوما الى زميلتي الجالسة أمامي فوجدتها شبه نائمة ، وزميلنا الجالس على الكرسي المجاور لها يغالب التثاؤب · وتذكرت حصة النوم في الروضة حين كانت تطلب المدّرسة منا أن نريح رؤوسنا على سواعدنا المتكئة على المكاتب · سوف أسميها اذن حصة النوم المقررة على طلاب الدكتوراه ! والحق أقول انه حدث مرة أن لم تراودني الرغبة في النوم اطلاقا في هذا الدرس الممتد من الثانية الى الخامسة مساء حين جاء دوري بتقديم مداخلة مطولة حول النظرية النقدية للكتّاب المثاليين الالمان !

ولكن محاضرة جوليوس ليستر ★ كانت شيئا مغايرا بالرغم من كونها في الصباح المبكر أذهب اليها ولم أنفصل بعد تماما عن غشاء النوم الشفيف • كان جوليوس رجلا نحيلا صغير الجسم تجاوز الثلاثين ، له شعر أسود خشن وقصير ووجه أسمر وفي احدى أذنيه حلقة صغيرة لا يخلعها أبدا • وما ان يدخل الى القاعة ويخلع معطفه ويبدأ في محاضرته حتى يؤخذ الطلاب بصوته الجهوري وايقاع جملته ويحملهم على جناحيه كطائر هائل يعلو بهم ، ويحلق ويسلك في انسياب ويلف على غير توقع ويهوي كما لو كان سيسقط ثم ثانية يرتفع • وعيون الجالسين تكشف عن متعة المغامرة في حضرة الطائر الواقف في ثوب شاب نحيل يعلق حكاية شعبه المسبي حلقة في الأذن • والطائر حين يبدأ حديثه لا يطيق حذاءه فينحني يخلعه ويضعه جانبا ، هكذا في كل مرة ، ثم يستمر •

قدرت الرجل وأعجبت بقدراته وأردت الاقتراب منه أكثر ، ولكن الطائر ــ الرجل لم يكن يفرد جناحيه هكذا في الطريق ، بل يسير في انكماش الغريب ، نفورا شاردا ووحيدا • وفي حجرته بقسم الدراسات الافرو ــ أمريكية يستقبل الطلاب بموعد سابق يقدم لهم العون فيه ، ويأتي أحيانا بابنه الصغير الذي يقوم هو برعايته يتركه جالسا على سجادة الحجرة

★ كان جوليوس ليستر عضوا بارزا في « سنيك » (احدى المنظمات التي شاركت بشكل اساسي في الحركة السياسية السوداء في الستينات) • وهو كاتب سياسي ، وباحث أكاديمي ، وجامع للتراث الشعبي الاسود ، ومغن وملحن وله عدة كتب واسطوانات•

أمامه كرّاسة للرسم وكومة من الاقلام الملونة في حين ينحني هو على كتبه وأوراقه على المكتب ٠

أوردت نشرة أخبار السابعة مساء في التلفزيون أن ظاهرة التعري الجماعي آخذة في الانتشار بين طلاب الجامعات ، وأن طلبة جامعة نورث كارولينا حققوا الرقم القياسي حين خرج أكثر من ثلاثمئة طالب وطالبة في يوم واحد يركضون معا وهم عراة تماما ٠ ولما كانت نشرات الاخبار تُعدّ لكي تسمع ويستقبلها الناس ويتأثروا بها ، فما مضى يوم الا والاعلانات تغطي الجامعة بأن طلبة « ساوث ويست » ، أكبر تجمع سكاني طلابي داخل الجامعة والذي منه برينس هاوس ، قد قرروا اقامة حفل « ستريكنغ » أي تعر جماعي على أن ينطلق المشاركون في الساعة الحادية عشرة ليلا من مركز تجمعهم في « ساوث ويست » في موكب راكض من العراة الى مركز الحرم الجامعي ، يدخلونه ثم يعودون ٠ وأثار الخبر كل من في الجامعة ، من ينوون المشاركة ومن ينوون المراقبة ٠ أما نحن مجموعة الأصحاب الغرباء على المشهد الامريكي ، فقد ضحكنا كعواجيز الفرح وقلنا : « لماذا لا نقيم نحن أيضا حفلنا الصغير الخاص ، نشرب ونأكل ونرقص في قاعة الدراسة المطلة على أبراج « ساوث ويست » ولحظة الواقعة نطل من النوافذ فنشارك في الحدث المثير بالمشاهدة ! » ٠

قلت لصديقيّ الايرانيين لما رأيتهما مدججين كل بآلة تصوير :

ـ أرى أنكما ستلتقطان صورا منافية للآداب !

وضحكت ، فرد أحدهما ضاحكا :

ـ بل صورا تشهد على الزمان والمكان !

ـ الحق أقول لكما ان ما يشغلني أكثر من تعري هؤلاء الشباب بلا سبب مفهوم هو ما سيتعرضون له من برد قارص. وسيصبحون جميعا في الغد وقد أصابهم التهاب رئوي !

ولم نتحدث في الامر بعد ذلك بل رحنا نشارك في احتفالنا بالحديث والنقاش والثرثرة في موضوعات أخرى ، متناسين الحدث ـ المحور لليلة حتى نسيناه فعلا .

« ها هم بدأوا يظهرون ! » لا أدري من ذا الذي اتخذ من النافذة برج مراقبة وانذار ، ولكننا تحلقنا خلف النوافذ ننظر الى موكب كبير من الطلاب العراة تماما الا من الجوارب والاحذية يهرولون من أمام الابواب الخلفية لبرينس هاوس . تساءلت ان كانت هرولتهم لشدة شعورهم بالبرد أم حرجا من عريهم غير المألوف . لم أر في حياتي مشهدا كهذا أو مقاربا حتى له ، قلت :

ـ كان يجب أن ننزل لنشاهدهم عن قرب .

فقال صديقنا الالماني :

ـ ولكن الجو شديد البرودة .

وأجابتني أنّا ضاحكة :

ـ لم يفتك شيء اذا كان لديك الاستعداد الآن للنزول وراءهم ركضا !

كنا لا نزال متحلقين حول النوافذ نعلق على الموضوع حين

دخلت علينا ماري وشيلا اللتان تسكنان الدور نفسه بصخب عاصف . قالت ماري بصوتها الأجش العالي :

ـ أما مشهد ! لقد لبسنا معاطفنا ونزلنا ، وانتظرنا خروجهم ، ورأيناهم يمرون من أمامنا .

وضحكت بمزيج من العصبية والفرح المنفعل .

ـ لقد التقطت لهم صورا ! كانت أبدانهم جميعا مقشعرة من شدة البرد ... مساكين ! أما منظر الاولاد ... يا الهي !

وراحت تقهقه . أما شيلا فكانت تتحدث الى مجموعة أخرى عن تقديرها لعدد المتعرين . كان من الواضح أنهم مئات . قالت شيلا بثقة :

ـ ليس أقل من أربعمئة !

في اليوم التالي جلست في قسم اللغة الانجليزية مع أستاذ النقد النظري واحدى الزميلات بانتظار باقي المجموعة للذهاب الى بيت الاستاذ للمحاضرة . كانت جريدة الجامعة قد نشرت الخبر ، وقالت ان عدد الطلاب قارب الاربعمئة ، وصدّرت في الصفحة الأولى صورة لعدة فتيات عاريات أثناء ركضهن في الموكب . قال « البروفيسور » وهو يبتسم بهدوء « صرعة جديدة » وقلت لنفسي : « وما الذي يحرك هذه الصرعات الجديدة ؟! » .

كان الجواب واضحا في عدد اليوم التالي من « الديلي كولويجيان » حين سئل أحد المسؤولين في شرطة أمهرست والتي تدخل الجامعة ضمن اختصاصها ، فقال :

ـ لماذا نقلق ؟ ان الطلاب يستمتعون بوقتهم ... وهذا أمر صحي ، المؤكد أنه أفضل من ذلك الهوس السياسي الذي استولى عليهم في الستينات .

كانت الشرطة تريد للطـلاب الاستمتاع بوقتهم هكــذا جماعيا ، لأن هذا يفيد ، أما خروج فرد عن المألوف فلم يكن مطلوبا في شيء . ولذلك فقد قبضت الشرطة بعدها بيومين على طالب عنّ له أن يركض في وضح النهار عاريا بالجامعة ، قبضت عليه وأنذرته بالعقاب ثم أفرجت عنه !

٧

ما الذي يحدث حين تعلو في الفضاء فجأة تغريدة طائر بشير تكذب لسعة البرد وعري الاشجار وتقول ان الربيع أتى ؟ وأفكر ، وأنا بعد لم أغادر فراشي ، بأني ألتقي الصباح عبر الواجهة الزجاجية العريضة ، في المواسم ، فواصل الزمن ، وأتساءل ان كانت أقواسا تطلقنا أم أبواب سجن أم أننا الذين نختار ؟ ظل الابواب موت ، والخوض صعب ، وعيناي لا تكذبان (هذه المرأة الصغيرة خائفة وتتقدم) والطفل الثاقب النظرات عمر حين عدت للقاهرة قال لأمه : « لماذا هي ساكتة هكذا ، وعيناها مختلفتان ؟ » ولو انني حجر ! وزقزقة العصفور تقلّب جفاف الجسد وحاجة الروح للغياب · وأحمل من درج مكتبي الصور التي التقطتها أثناء زيارتي للقاهرة أتملاها ثم أعد قهوتي الصباحية ، وأغتسل ، وأستعد للخروج ·

قالت لي صديقتي آنًا وهي جالسة معي في مقهى الجامعة معلقة على رغبتي في التقدم لامتحان التخصص الشامل بعد انتهائي من « الكورسات » في الصيف :

ـ لماذا أنت دائما في عجلة من أمرك ، كأنك تريدين اللحاق بقطار ؟

ـ هل تذهبين معي الاسبوع القادم الى حفل « كاونت بيسي » سيعزف هنا في الجامعة ·

ـ أذهب ولكنك لا تجيبيني، كنت أقول انك دائما تركضين كأنك تريدين اللحاق بقطار ·

ـ أو كأنني خائفة من أن يدهمني قطار يا آنّا !

قررت التقدم بمشروعات التخصص الثلاثة بأسرع ما يمكنني حتى اذا وافق عليها مجلس الدراسات العليا بقسم اللغة الانجليزية تقدمت للامتحان في الوقت الذي يحدده فأكون بذلك قد اجتزت نصف المسافة · ومرة أخرى رحت أركض في حركة محمومة من أجل انجاز ما أريد · كان عليّ أن أستكمل بعض القراءات الأساسية قبل أن أستطيع كتابة اقتراحات التخصص بما يرضيني ، فيما أواصل حضور الدروس المقررة واعداد ما يتطلبه الاساتذة من مداخلات وأبحاث · هكذا قضيت النصف الثاني من شهر مارس وشهر ابريل كله وأنا موزعة بين قاعات الدرس ومكتبة الجامعة · عمل يومي متصل هو اقامة تتحدد بين ملايين الأحرف المتشابكة في كلمات متراصة في أسطر تتعاقب على ورق بعقد الصلة بين المحدود والبحر · يدعوني البحر فأروح اليه موزعة بين وجل المرأة الصغيرة وزهو المقتدر · وكلما توغلت اتسع البحر أمامي عميقا ومتراميا يحيرني ما بين حرفة الغواص والربان · ثم يداهمني شعور مبهم بأن ضوء النيون في المكتبة ، والغبار الدقيق المختلط بصفحات الكتب القديمة ، وشبه العتمة بين أرفف الكتب في الأدوار العلوية ، خانقة ، وان هذه المكتبة المرتفعة ستة وعشرين طابقا فوق الارض تحمل شيئا من عتمة قبو أرضي · ربما كانت مقبرة بحرية والا فلماذا باغتتني المكان

في ضوء الشمس الساطع حين خرجت اليه ذلك اليوم لتناول الغداء ؟ ولماذا ارتبكت وملأت الدموع عيني وأنا أخرج من مكتبة جامعة أمهرست عند الغروب حين سمعت صوتا ناعما ينبعث من أوتار غيتار ؟ تتبعت الصوت فوجدت شابا يجلس على حجر يواجه التلال الدخانية في الأفق • كانت السماء صحوا ودفء الموسيقى يجاوب دفئا استثنائيا في ذلك اليوم الربيعي المتوهج بالشمس العارية • خلعت حذائي وسرت على العشب أستمد من اليابسة تحت قدمي العاريتين ثباتا وطمأنينة •

كانت زيارتي لبوسطون دائما خاطفة ولغرض محدد ، ومع ذلك فقد ألفت المدينة وراقت لي أبنيتها القديمة ذات السقوف القرميدية ، ومساحات الخضرة فيها ، ولوحات التأثيريين الأوروبيين في متحف فنونها الجميلة ، وتمثال هندي معجز في احدى قاعاته • ثم ان بالمدينة نهرا ، وأعترف أن نهرا في المدينة يكسبها في القلب مكانا • ورغم زياراتي المتعددة لم أكن قد زرت أيا من جامعاتها ولا آثارها التاريخية المرتبطة بالثورة الامريكية • وحين سألني زميلي الالماني الفارع الطول اذا كنت أحب أن أرافقه وهو وصديقته اللا لقضاء يومين في بوسطون قبلت • كان الطقس رغم برودته ربيعيا ، وقد ذابت الثلوج كاشفة عن مساحات العشب ، والاشجار تحمل على أغصانها تلك الكريات الدقيقة الصلبة التي قد تفاجيء المرء بالأخضر في أي وقت • وكانت هذه أول زيارة سياحية لي للمدينة ، وتولت اللا مهمة ارشادنا ، قررت عنا أن توزع اليومين اللذين سنقضيهما في المدينة في مشاهدة مواقعها التاريخية،وزيارة جامعة هارفرد،والتسكعفي الساحة المواجهة

للحرم الجامعي (تسكع مخطط له ومحسوب حسب برنامج اللا !) وتناول مشروب بأحد المقاهي الصغيرة المكتظة عادة بالطلاب ، وتناول فطيرة تفاح مع القهوة بالحليب في « البيوتر بوت » لأنه مقهى شهير وتاريخي (!) ثم تناول وجبة عشاء في اليوم التالي للوصول في مطعم صيني يقدم طعاما شهيا ـ حسب معلومات اللا وبرنامجها غير المدون ـ يطل على نهر الشارلز في كامبريدج ٠

تركنا أمهرست في الثامنة من صباح السبت فوصلنا بوسطون بعد ذلك بساعتين ، بدأنا بترتيب أمر مبيتنا فلما انتهينا من ذلك اقترحت اللا أن نبدأ بأثر الحرية ٠

ـ وما هو أثر الحرية يا اللا ؟

ـ انه طريق يمر بأهم المواقع الاثرية المرتبطة بأحداث الثورة الامريكية ٠

لم أدر في الماضي وما زلت لا أدري تماما لماذا لم تثر الثورة الامريكية حين درسنا عنها في مقرر التاريخ بالمرحلة الثانوية اهتمامي أو خيالي ، ذلك رغم حبي للتاريخ وتوهج خيالي بأحداثه الجسام ٠ كان في حديث الثورة الفرنسية عشرات التفاصيل التي تملكني كما الطفلة المنصتة لحكايات ألف ليلة ، سقوط السجن العاتي ، حشود الجائعين ، بلاهة الملك ، براعة الخطباء ، الملكة المسوقة للمقصلة ، صعود الكورسيكي ذي الجبهة العريضة ، شعار الكلمات الثلاث والقبعة المثلثة والشارات على الصدور والتقويم الجديد ، ونار الفعل التي تسري كالريح الغربية يكتبها الشاعر ★ في الناحية

★ الاشارة هنا للشاعر الانجليزي شيلي وقصيدته للريح الغربية ٠

الأخرى من المحيط . ولماذا لم تقل لي هذه الثورة الامريكية شيئا ولم أجد فيها وأنا مراهقة صغيرة أتعلم في مدرسة ثانوية للبنات غير عبء حفظ التواريخ وعدد صناديق الشاي التي ألقي بها في المحيط وقيمتها بالجنيهات .

ـ هيا بنا الى أثر الحرية يا اللا !

سرنا متتبعين خطا محددا بالطلاء الابيض يمتد من قلب مدينة بوسطون حتى الشاطيء حيث اندلعت أحداث « حفلة الشاي » عام ١٧٧٣ مرورا بموقع « مذبحة بوسطون » والكنيسة الجنوبية القديمة مقر الاجتماعات التي جرت بين قادة الثورة وبعض المشاركين فيها . كنت أسير على الخط الابيض وأتمنى لو أنني أجلس في سلام بأحد المقاهي أتناول كوبا من القهوة الساخنة . هل كان البرد القارص أم صوت اللا النحاسي المنفر الذي جعلني أنكمش بعيدا ؟

المؤكد أنني تحولت عن المشهد ككل بعد أن قادنا الخط الابيض الى قطعة أرض خالية وأعلنت اللا :

ـ هنا قتل خمسة أشخاص على أثر مناوشات بين الأهالي والعساكر الانجليز في مارس عام ١٧٧٠ ، وهذه الواقعة هي المعروفة بمذبحة بوسطون .

ولم يكن قد مضى أكثر من بضعة شهور على مذبحة الملعب الرياضي في شيلي عقب انقلاب بينوتشيت العسكري على حكومة آييندي المنتخبة . خمسة آلاف شخص حشروا بالملعب الرياضي انتظارا للمذبحة التي راحت تمتد بعد ذلك بطول البلاد . ولم يكن دور الولايات المتحدة في هذه المذابح ليخفى على أحد .

ترى أفي الزمان القريب أم الأبعد يزور الوافدون موقع

مذبحة الآلاف بسنتياغو حيث قطعوا يدي العازف المغني فيكتور هارا قبل أن يقتلوه ؟

واللا تحرك فكيها بحماس لا يكل ، وصديقها الالماني يناسبها بلادة ، وقدماي تتبعانهما على الخط الابيض الذي لا ينتهي ، أفكر في مذابحنا التي لا تنتهي . ترى كم مذبحة ننتظر ؟ لقد أسلمتنا الأيام الستة لمذابح الالف قتيل في يونيه ١٩٧٠ التي راحت تخفت وتتوارى أمام مذابح أيلول . وقبل تمام العام ، ولابسات الحداد لم يخلعنه بعد ولا اعتدن غياب الغيّاب داهمتهم أحداث جرش والهزيمة من جديد . ترى كم مذبحة ننتظر ، وكم حربا يتعين علينا خوضها ، وكم منا من يتعين عليه أن يصعد للموت هكذا كنبي كما فعل عبد الخالق والشفيع ؟

ـ لا أريد الاستمرار في السير في هذا الأثر ، انني ذاهبة !

عدت من بوسطون بنسخة ورقية مصغرة من لوحة « الغرنيكا » لبيكاسو علقتها في مواجهة سريري ببرينس هاوس . ولكني حين ذهبت بعد ذلك بفترة قصيرة الى متحف الفن الحديث بنيويورك حيث تعرض اللوحة الاصلية عرفت أن النسخة المصغرة تتنافى مع الحضور العبقري للأصل بل تكاد تنكره كما تنكر البطاقة البريدية المعمار المعجز للكتدرائية التي تحمل صورتها . كانت اللوحة تغطي الجدار المواجه كاملا وعلى الجدران المحيطة رسوم بيكاسو التي بدأ يخططها فور سماعه خبر قصف القرية . وفي كل الرسوم تتكرر تلك المرأة العاصفة . مركز الصورة هذه المرأة أم هكذا العمل العبقري دائما تتعدد المراكز فيه ؟ ويد الفارس المقطوعة

والقابضة على زهرة بعزم نبي ، أليست هي الاخرى مركزا من موقعها بأسفل اللوحة ؟ وتلك المرأة التي تنحني على ابنها القتيل بأقصى يسار اللوحة تجاوب في القلب وجعا • هذه « الغرنيكا » تحمل همي وتجربتي ، حملتها في قلبي ونزعت النسخة المصغرة عن جدار الغرفة •

في أمهرست يبقى الربيع حيا خافت الحضور حتى نهاية أبريل • ثم يأتي مايو فتدخل الارض وساكنو البلدة الى مساحات من الدفء والفرح ترتبط بالأخضر الجديد على الشجر ونعومة رائحة الليلك التي تتسرب عبر النوافذ المشرعة ، لا يكاد المرء في النهار يشعر بها ، وفي المساء تصبح هي السيدة في المكان •

وحيث يطول الشتاء وتتراكم على الارض الثلوج ويجف الشجر كأن لا أمل في عودة حياة اليه يكون لليوم الربيعي المشمس بهجة ولادة طفل في بيت شاخ كل من فيه •

هكذا حين هل الشهر الخامس كان الحرم الجامعي يتوهج بضوء الشمس وبصخب الطلاب الذين راحوا يحتفون بمقدم الدفء واقتراب العام الدراسي من نهايته • كان العديد منهم قد بدأوا يتخففون من ملابسهم ، البعض يلبس الشورت والبعض يسير عاري القدمين مستمتعا بنداوة العشب • بعض الأساتذة خرجوا بمجموعاتهم الطلابية من قاعات الدرس وجلسوا على العشب يكملون درسهم • وأصوات لآلات موسيقية تضبط وتعدّ يسمعها العابر من أمام الكنيسة العتيقة والتي تستخدم كمقر لفرقة موسيقية •

كان المكان يتألق بحيوية الاستعداد لعرس • ووجدتني أسير في الحرم الجامعي أجاوب البهجة في المكان • حملت

الى حجرتي فرعين من الليلك ووضعتهما في اناء زجاجي فارغ من أواني القهوة ، ملأته الى النصف بالماء ووضعته على حافة النافذة • تركت باب الحجرة مفتوحا وجلست الى المكتب •

كنت قد انتهيت تقريبا من الابحاث المطلوبة مني للفصل الدراسي وبدأت الاستعداد للامتحان الأولي الشامل للدكتوراه• بعد أن وافقت لجنة الدراسات العليا على المشروعات التي تقدمت بها وحددت يوم ١٧ يونيه موعدا للامتحان •

وبطول حياتي الدراسية لم تشكل الامتحانات لي لا موضوعا للخوف ولا مركز جذب يحدد مسار حياتي اليومية • ولكنني في هذه المرة كنت خائفة أعايش خشيتي من الرسوب على مدار اليوم • كنت قد قررت أنني حين أنجح سأسجل موضوع الرسالة وأحمل معي بعض ما أحتاج من مراجع وأشرع في كتابة جزء من الرسالة في القاهرة ولا أعود الى أمهرست الا في يناير من العام التالي ، واصلة بذلك عطلة الصيف بعطلة أعياد الميلاد ، مرورا بفصل الخريف الدراسي الذي لن يكون مطلوبا مني فيه حضور أية دروس • واذا رسبت ؟ يتركني السؤال بائسة في المفترق كطفلة يداهمها الخوف أمام سيل السيارات الذي لا ينقطع من الطريق الذي يتعين عليها عبوره للوصول الى البيت فتقف بلا حراك تملأ عينيها الدموع !

غادرت زميلتي في الغرفة الجامعة لقضاء الاجازة الصيفية مع أهلها • وكان شعوري بانفرادي في الحجرة مركبا ، فزميلتي صارت توترني ببحثها الدؤوب عن عريس وحبها العظيم للنوم،وغطائها الموصول بسلك كهربائي يدفيء الجسم

ومكالماتها التلفونية لأمها في ولاية ثانية لتسألها : « عندي صداع ... ما العمل ؟ » ورغم ذلك افتقدتها ، ليس لأنني فقدت مركز المتفرج الخبيث الذي يتسلى بالمشاهدة ولكن لأنني في الحق كنت أعرف مدى طيبتها وأحبها وآنس بوجودها .

كذلك غادر معظم ساكني برينس هاوس الذي كاد يخلو الا من عدد قليل من الطلاب الوافدين أمثالي الذين يستعدون لامتحان أو آخر . وبدا الحرم الجامعي بعد حفل التخرج في أول يونيه خاويا تماما بل وموحشا .

ورحت أواصل الاستعداد للامتحان بالاطلاع على أهم المراجع والدراسات التي تتناول مجالات التخصص الثلاثة التي سوف أسأل فيها . واستعضت عن القراءة في المكتبة بالقراءة في حجرتي الا اذا اقتضت الحاجة غير ذلك . أقضي النهار وأنا جالسة أقرأ ، وحين أتعب أذهب سيرا الى أحد مقاهي الجامعة لتناول قطعة من الحلوى أو أستعير دراجة زميلة لي وأركبها الى مركز البلدة .

كانت الطريق الى الشارع الرئيسي بأمهرست جميلة ، فالأخضر غالب ،تزين حدائقالبيوت الصغيرة المكونة من طابق أو اثنين أحواض من الزنبق الاحمر والاصفر . وفي أحد المنعطفات شجرة يفاجئني لون أوراقها في كل مرة أراها كأني لم أرها من قبل . فمن أين لأوراق شجرة بهذا الاحمر الخمري ؟ وأركب الدراجة حتى أصل الى محل لبيع المثلجات وأشتري ثم أعود لمواصلة العمل .

ذهبت للامتحان صباح يوم ١٧/٦/٧٤ . أحضر لي

أستاذي رئيس لجنة الاشراف كوبا من القهوة وقال وهو يبتسم : « ليس في الامر ما يوتر ! » فانتبهت لكوني متوترة. كان الامتحان شفهيا واللجنة مكونة من خمسة أساتذة . بدأوا يسألون وأخذت أجيب . بعد ثلاث ساعات انتهى الامتحان وطلب مني الانتظار بالخارج .

جلست في حجرة مجاورة وقد داهمني شعور بالتعب . هل كان قلقا ؟ بعد دقائق يخرجون من الحجرة ليعلنوا لي النتيجة ، وقولهم يحدد مسألة سفري الى القاهرة . هل أبدو شاحبة كما في تلك الصورة التي التقطت لي وأنا أقف بالرداء الجامعي الاسود بعد إنتهاء مناقشة الماجستير ورئيسة لجنة الامتحان تقرأ النتيجة ؟ في الصورة أبدو نحيفة وصغيرة كمراهقة هادئة المظهر وعيناها الواسعتان تنطقان بالقلق والذكاء .

وها هو الاستاذ العجوز بروغن أول من يخرج من القاعة ، يبتسم ويقول انه قرأ رسالة الماجستير وأنه يعتقد أنها ممتازة . وأنا أنتظر أن يقول شيئا عن امتحان اليوم فهل ليس لديه ما يقوله الا اطراء لعمل قديم ؟ كنت مخطئة فقد كان على رئيس اللجنة أن يبلغني بالنتيجة ، وقد خرج وهو يضحك قائلا :

ـ لا بد أنك مدّرسة جيدة يا رضوى لأنك مقنعة جدا في النقاش . مبروك ! لقد نجحت . وقد صوّت أربعة من أعضاء اللجنة باعطائك امتيازا ، وصوت واحد بأن تنجحي فقط ، مبروك !

كانت الجامعة التي امتلأت قاعاتها وملاعبها بآلاف الطلاب

قبل ذلك بشهر واحد قد أقفرت الا من العشرات وخيم عليها سكون ووحشة • ورحت أعمل بانتظام في جمع المادة العلمية التي سوف أحتاجها أثناء وجودي في القاهرة ، كنت أذهب كل صباح الى المكتبة ، أبحث عما أريد من دوريات ومراجع ثم أحملها الى جهاز التصوير لأصور ما يفيدني من دراسات بها ، وحين أعود الى برينس هاوس ، بعد الظهر في الغالب ، أتناول وجبتي المسائية مع القليلين من أصحابي الذين لم يسافروا •

وفي يوم خانق الحرارة من مطلع يوليه أخذت تتوافد على الجامعة عشرات السيارات الخاصة وسيارات النقل الصغيرة ، وضج الحرم الجامعي فجأة بالصخب والحركة • « ما الخبر ؟ » سألنا فعرفنا أن ادارة الجامعة قد أجرت أحد الأبراج السكنية في « ساوث ويست » وبعض القاعات والملاعب للغورو ماهاراجي ومريديه • ولما لم يكن أحد منا قد سمع الاسم من قبل فقد رحنا نسأل عن الرجل وحكايته •

قالت زميلة أمريكية لنا انه قد يكون أحد الحكماء الهنود كالغورو الذي درّس لها « كورس » التأمل في الفصل الدراسي السابق •

ـ كان الغورو يعلمنا كيف نقضي عدة دقائق دون أن نفكر في أي شيء على الاطلاق ، يعلمنا كيف نتحكم في قدرتنا على ايقاف تيار أفكارنا تماما •

هل كانت المعرفة تنقصني أم أني كنت صائبة في حكمي على زميلتي الامريكية بأنها صغيرة بلهاء وبأن لأستاذها براعة المحتالين ؟ لم أفصح عن ذلك ولكني فقط حركت كتفي وقلت :

ـ لم آت الى الجامعة ، لكي أتعلم كيف أمنع نفسي من التفكير !

ثم تبدل وجه الجامعة بين يوم وليلة ، اذ عجّت بآلاف الشباب ذوي الهيئة الهيبية ، الشعور المرسلة والملابس الكالحة الرثة والأقدام الحافية • وصارت لمقاهي الجامعة رائحة هؤلاء الشباب الكثيرين الذين لم تعرف أجسادهم الماء لأيام طويلة• وحول البحيرة ، وعلى العشب هنا وهناك ، استلقت مجموعات تفوح منها رائحة العرق والماريوانا • ولم يقتصر مشهد التقبيل على الزوايا ، ولا هو اقتصر على فتى وفتاة هنا أو هناك • ورغم أن الجامعة ادارة وطلابا كانت تعترف بالجنسية المثلية ، وتسمح للطلاب ذوي العلاقات المثلية بأن يكون لهم جمعية تمثلهم وتدافع عنهم ، وحفلات راقصة خاصة تقام بين حين وآخر في أحد مقاهي مركز الحرم ، الا أن مشهد شابين يقبلان بعضهما في وضح النهار بالجامعة وسط الرائحين والغادين لم يكن بالشيء الشائع •

ولكن الجامعة في ذلك الأسبوع الاول من شهر يوليه عام ١٩٧٤ كانت قد تحولت الى مستعمرة هيبية كبيرة تمارس فيها مظاهر حياة ما يسمى بالثقافة المضادة • ولم يكن كل الذين أتوا الى الجامعة للالتقاء بصاحب الرسالة الهندي آتين من أماكن قريبة ، فالبعض منهم قطع القارة من الشاطيء الغربي الى حيث الجامعة بشمال شرق البلاد في رحلة برية استغرقت عدة أيام ، والبعض أتى بالطائرة خصيصا للمناسبة ، وكانت هناك طائرة خاصة حملت بعض المريدين من أمريكا الوسطى والجنوبية ، هذا ما سمعناه !

ثم شاهدنا عمالا يقيمون عند الملاعب المترامية خلف أبراج « ساوث ويست » قبة ضخمة من الحرير أحيطت بعشرات الكشافات • « هنا سوف يجلس الغورو ، ومن على تلك المنصة العالية المظللة بالقبة الدمقسية سوف يطل على

مريديه المحتشدين أسفل المنصة » ·

وفي المساء حملنا أنفسنا ، نحن الأغراب على المشهد الامريكي والشهود عليه ، فاتجهنا الى حيث الملاعب · وقبل أن نقترب من المكان وصلت الى أسماعنا موسيقى صاخبة فتساءلنا ان كان هناك حفل راقص بالقرب من المكان واذا ما كان الحفل بريئا أم يقصد به افساد الاستماع الى دعوة النبي الهندي ·

هبطنا من أعلى التلة حيث الأبراج السكنية وبيتنا الى مساحة من العشب الممتد · رأينا حشودا من البشر الجالسين على العشب ، سبعة آلاف ، عشرة آلاف ، أكثر ··· وموسيقى راقصة تنبعث عالية من مكبرات صوت ضخمة موزعة في المكان راح مريدو الغورو الشرقي يستجيبون لها بالتمايل وهم جلوس أو بالرقص على ايقاعها ·

توغلنا أكثر · بدا المكان كيوم الحشر غاصا بآلاف البشر بينهم عديد من المعاقين · بحثنا عن مكان نجلس فيه فوجدناه لصق شاب يضع جواره عكازتين كبيرتين · سمعت شخصا يناديني فالتفت · كانت سيدة أفرو ـ أمريكية من معارفي · قالت وهي تقترب مني وترفع صوتها لكي يصل الى وسط الضجيج البابلي المحيط :

ـ المركب يغرق أم أن لك رأيا آخر !

وأطلقت ضحكة ضاع صخبها في الصخب العام وتركتني· ورحت أستعيد أبياتا من قصيدة « الارض الخراب » لاليوت :

أي فروع سوف تنمو من هذا الركام الحجري ؟

يا ابن الانسان ليس في مقدورك أن تقول أو تخمن

فأنت لا تعرف سوى كومة من صور محطمة ٠

وأي فروع يا ترى سوف تنمو من هذا المشهد الامريكي التعس ؟ يدوي صراخ مفاجيء ، ويقفز الناس واقفين ، ويفقد البعض وعيهم ، ظهر الغورو ٠

على المنصة تحت الأضواء الكاشفة ، وقف فتى هنـدي متوسط القامة ، مستدير الوجه ، له شعر أسود لامع يغطي نصف أذنيه ٠ وبدا واضحا أن النبي الهندي صبي في سن المراهقة لم يتجاوز عامه السابع عشر ٠

ثم ساد الصمت وبدأ الغورو يتكلم باللهجة الانجليزيـة المميزة لأهل الهند عن الحب وعن النفس التي تحمل كل شيء في الوجود بداخلها والتي على المرء أن يبحث فيها عن أجوبة كل الأسئلة ٠ والبشر ينصتون ، وأنفاسهم معلقة بوجـه الصبي المخلّص الذي يعيد بعض مقولات قديمة في التصوف الشرقي ٠ وألكز صديقتي الجالسة بجواري أقول لها ساخرة :

– ان كل الأسئلة حول ووترغيت يجب ألا توجـه الى نيكسون وادارته بل الى النفس يا عزيزتي ، اسألي نفسك تجدي الجواب دائما !

وتضحك صديقتي ، والمشهد عاد مثيرا للملل وقد توقفنا عن الانصات الى صوت النبي الرتيب ٠ وأفكر كم أن الشاعر اليوت كان عرّافا في توصيف الداء ونموذجيا في الاختيار ٠ حضارة كسيحة ، في القصيدة ، والآن بعد نصف قرن ، تزحف الى مخزن قديم للموروث الصوفي الشرقي وتستخرج عكازتين لتسير ٠ وذلك المسكين الجالس بجانبي وبجواره عكازتان طويلتان من خشب يستعين على السير بهما ، هل جاء هنـا آملا في الشفاء على يدي المخلص من ساقه المبتورة في الحرب

الفيتنامية على الأرجح ، أم جاء يبغي عكازة للنفس ، صورة أو بعض صورة يعلقها على الجدران العارية لعمره الشقي ؟ يا ابن الانسان الواهم ، يا ابن الانسان المسكين !

ونترك المشهد • ندير ظهورنا للآلاف الجالسة على العشب ونصعد باتجاه برينس هاوس وكلمات الهندي تصل أسماعنا عبر مكبرات الصوت •

ـ مشهد كئيب !

ـ انهم بحاجة لمخلّص •

ـ ليس لمخلّص بل لخلاص •

ـ وذلك لا يخفى على الاجهزة !

ـ وهناك دائما دمية من نوع ما يمكن الباسها وطلاؤها وتقديمها في ثوب مخلّص •

في صباح اليوم التالي عرضت عدة أفلام عن الغورو ، وعقدت حلقات لدرس ما قال ، وفي الساحة المواجهة لمدخل مركز الحرم نصبت طاولات لبيع قمصان قطنية تحمل على الصدر صورته ، وأشرطة تسجيل بها أحاديثه ، ودبابيس عليها شعاراته •

وقال أحد أصدقائنا وهو يضحك :

ـ قيل لي ان من يريد تقبيل يد الغورو يدفع ٢٥ دولارا !

ـ أنا أيضا سمعت ذلك !

ضحكت ولكني لم أكن أمزح ، كنت فعلا قد سمعت ذلك !

غلبني الشعور في الأسابيع الاخيرة من وجـودي فـي

أمهرست بأنني أشبه بنبتة مُنع الماء عنها ، وكنت أجف • صرت أتحاشى النظر الى وجهي في المرآة • أصفف شعري ، أعدّل من هيئتي وعيناي مثبتتان على شعري أو ملبسي ، أخشى لقاء العينين بالعينين ، وأسرع الخطو حتى لا أبصر ذلك الذي يتبعني في صمت عاتب ، أنكره ولا أنكره •

ومع ذلك كانت مغادرتي أمهرست هذه المرة مختلفة بعض الشيء عن سابقتها ، كنت أترك ورائي أماكن ألفتها وأصحابا أعطوني في الغربة بيتا أسكن اليه وفيه • ذهبوا معي الى المطار لتوديعي ، أربكني الفراق ، قبلتهم ودخلت الى قاعات المسافرين يثقلني أنني قد لا أرى صديقيّ الايرانيين بعد ذلك أبدا ، لأنهما ينهيان دراستهما ويستعدان للعودة الى بلدهما • تطير بي الطائرة نصف ساعة من مطار برادلي بهارتفورد الى نيويورك ثم أجلس في انتظار اقلاع الطائرة الجامبو الكبيرة الى باريس • أصل باريس التي لم أزرها أبدا في صباح اليوم التالي بعد تسع ساعات من طيران متصل• وأضن على نفسي بالنوم صباحا في مدينة جديدة فأنضم لرحلة سياحية تطوف المدينة في ساعات بالأتوبيس • أسمع كلمة مما تقوله المرشدة وأغفو ، ألمح برج ايفيل ما بين اليقظة والنوم ، وحين يتوقف الأتوبيس لكي يرى السائحون كنيسة نوتردام أذهب الى مقهى قريب وأتناول كوبين من القهوة ثم أدخل الى مبنى الكنيسة أشاهد معمارها المعجز •

وأنزل في فندق متواضع بحي عمالي • أنام ساعتين ثم أعود الى الشارع لكي أرى ، ولكني أسمع • هل هو الحنين الذي يتبعني صار له صوت كصوت المؤذن ساعة الغروب ؟ ولكنني أسمع صوت المؤذن يعلو صافيا في ذلك الحي العمالي

الفقير • أتبع الصوت وقبل أن أصله ينتهي الآذان ثم يعقبه غناء لفريد الاطرش • أصل الى حانة للعمال المغاربة هي مصدر ما سمعت • أقف بباب الحانة ، خطوة تقدم بي للجلوس مع من فيها وأخرى تحجم واعية بأن أحدا منهم لن يفهم ما الذي أتى بتلك المرأة العربية مثلهم الى حانة الرجال • أقف بالباب أستمع للأغنية الى نهايتها ثم أدور على أعقابي برفقة ظلـي الذي أمسكت بيده هذه المرة ورحنا في المدينة الجديدة نسير معا • قضيت يومين في باريس وفي صباح اليوم الثالـث غادرتها الى القاهرة •

٨

أغلق باب حجرتي في برينس هاوس وأجلس على السرير أمام حقيبتي السفر ، الحقيبة التي حملتها من القاهرة وتلك التي كنت أودعتها بعض أغراضي واحتفظت لي آنّا بها في أمهرست • حجرة الغريب موحشة • غدا أضع على السرير ملاءة بيضاء وأحول السرير الآخر الى أريكة أغطيها بالمفرش المصنوع من قطن مدراس • لا زهور في يناير أضعها على حافة النافذة • أزيح الستارة الرمادية فأرى أبراج « ساوث ويست » أمامي • خصتني مديرة البيت بحجرة لي وحدي وقد أصبحت من المخضرمين في البيت •

في الصبح أصحو على البلدة التي غادرتها تتألق في عزها الصيفي وقد سكنت في الأبيض وأثقلت فروع أشجارها الثلوج • أخرج معطفي الازرق وغطاء رأسي وقفازي وحذائي المبطن بالفراء من الحقيبة التي أعادتها لي آنّا • وآنا لم تعد تسكن برينس هاوس ولا أصحابي البورتوريكيون ، وصاحباي الايرانيان غادرا • ترى من يسكن في هذه الحجرات المجاورة ؟ ها هي زميلتي التي كانت تشاركني الحجرة تسكن في الحجرة

الملاصقة ، اسمها على الباب وملصق صغير ملون لعروسين بثوب الزفاف · هل تزوجت أم فقدت عقلها أم أصيبت بالأمرين معا ؟ بعد تبادل القبلات والاخبار عرفت أنه لم يحدث لها أي من الأمرين · ألا يكتب الانسان اسمه وعمله بباب بيته تعريفا بهويته ؟ هكذا علقت زميلتي بباب حجرتها اسمها وتعريفا بأكثر الطموحات أصالة في نفسها : حلم الزواج !

على المكتب أضع فصلي الرسالة اللذين انتهيت من كتابتهما أثناء وجودي في القاهرة · ها هما أخيرا جاهزان للعرض على المشرف · كانت هذه الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة والتي لا تتعدى الخمسين هي موضوع قلق الرحلة فلم يكن معي ما أخشى عليه سواها · ولما راحت الطائرة تتعثر في الضباب الكثيف الذي يحيط بنيويورك بلا بادرة على امكانية الهبوط الى مطار كنيدي أخذت أطمئن نفسي بأنني أحمل نسختلن مما كتبت ، احداهما بحقيبة السفر والاخرى في حقيبة يدي ! ها أنا والاوراق وصلنا في نهاية المطاف سالمين ·أرتب الاوراق على المكتب ثم أعلّق بطاقتين مصقولتين اشتريتهما من متحف الانسان بلندن على لوحة الفلين التي فوق المكتب · البطاقة الأولى تحمل صورة بالأبيض والاسود لتمثال صغير من البرونز لرأس امرأة أفريقية من صنع مثّال مجهول من اليوروبا · هذا أجمل تمثال صغير وقعت عيناي عليه ، وهذه البطاقة الصغيرة تختصر الاصل ، صحيح ولكنها لا تضيعه · والبطاقة الاخرى مصقولة أيضا ولكنها ملونة لثوب فلاحي فلسطيني مطرز · أعيد ملابسي الى الدولاب ثم أبدأ في الاتصال بأصحابي أعلمهم بوصولي ·

قالت صديقتي الأفرو ـ أمريكية العجوز التي جاءت الى

أمهرست في الخريف كأستاذة زائرة :

– تعالي فورا سأكون بانتظارك • انني أتحرق لسماع أخبار القاهرة •

وضعت السماعة وتحصنت بالمعطف والطاقية والشال والقفاز وغادرت برينس الى وسط البلدة حيث فندق اللورد جيفري الذي تنزل فيه صديقتي • ولو ان الوقت صيف لذهبت سيرا على قدمي ، ولكن للبرد القارص أحكامه • ركبت الأتوبيس الى وسط البلدة ثم عبرت الشارع الى كلية أمهرست التي تجاوزتها الى مبنى صغير هو مبنى الفندق الذي كنت أدخله للمرة الأولى • بدا المكان عريقا ومتميزا يغلب عليه ما يسمى بالطراز « الكولونيالي » ، فالأثاث وجزء من الجدران من الخشب البني اللامع رغم دكنته ، وكأنه مقتطع من بيت أسرة جنوبية بيضاء ، ثرية ، في القرن الثامن عشر • قلت لنفسي وأنا أبحث عن حجرة صديقتي بعد أن سألت موظف الاستقبال ، ولكن هذا فندق في بلدة جامعية ولو نظرت من النافذة الآن ، فلن أجد العبيد يعملون في حقول القطن المترامية بل طلبة وطالبات تغلب عليهم الهيئة الهيبية ويعيدون حسابات الماضي على الأرجح •

كانت صديقتي تسكن حجرة في نهاية الممر • طرقت الباب ، فتحت • في حومة اللقاء نسيت الفندق وطرازه وراحت صديقتي تسألني • كانت تحب القاهرة التي أتتها كلاجئة سياسية عقب الانقلاب على نكروما وأقامت فيها لسنوات في بيت يطل على النيل • وكلما ذهبت لزيارتها قالت : « اجلسي هنا لتشاهدي ذلك النهر الرائع ! » وفي كل مرة أكاد أقول لها انني لن أمانع في الجلوس في مكان آخر ، وانني آلف المشهد كأنه وجهي في المرآة ، أكاد كل مرة أقول

ذلك ولكني لا أفعل · وحين أجلس في مواجهة النهر يدهشني حضوره وتحتفي به نفسي كأنها للمرة الأولى تراه ·

ـ تركت القاهرة تغلي ، افتتح عمال حلوان العام الجديد بمظاهرات صاخبة في ميدان التحرير وقصر النيل وباب اللوق احتجاجا على تردي الاوضاع الاقتصادية · لقد قبضوا على العديد من العناصر الديمقراطية ولا زالت الحملة مستمرة ، حتى أن أحد معارفي التقى بي صدفة قبل مغادرتي بيومين فقال ساخرا : « ما دمت مسافرة فماذا تنتظرين ؟ أن يقبض عليك أولا ؟ » ·

قالت السيدة وهي تهز رأسها في أسى :

ـ عند تولي ذلك الرجل تصورت أنه سيكون امتدادا أصيلا لعبد الناصر · انه نصف أسود كما تعلمين ، ولقد استبشرت بذلك خيرا !

أي منطق أعوج هذا يا صديقتي العجوز !

ـ نصف أسود أم نصف أزرق ، لا علاقة للألوان بهذه المسائل !

ثم راحت صديقتي تثرثر بهذا الحماس المميز لها وللمسنين عموما عن ما قامت بتدريسه في فصل الخريف الدراسي وما سوف تقوم بتدريسه في هذا الفصل ، وعن المودة التي يحيطها بها كل من في القسم · كانت تتحدث بلا انقطاع تصل الجملة بالجملة والموضوع بسواه ، وأنا أنصت لبعض ما تقول وأفكر في تلك البرقية الدالة التي أرسلها زوجها ديبوا عام ١٩٥٦ الى المؤتمر الاول للكتّاب الزنوج في باريس · ساعتها كان ديبوا على مشارف التسعين واجه الاضطهاد المكارثي في السنوات السابقة حيث كان العديد من الناس يتنصلون من

علاقتهم بالماركسية باعلان انتسابه الى الحزب الشيوعي الامريكي وقدم للمحاكمة وسحب منه جواز سفره · قال الرجل في برقيته :

« لست معكم اليوم لأن حكومة الولايات المتحدة رفضت أن تعطيني جواز سفر · ان أي زنجي أمريكي يسافر اليوم الى الخارج عليه ألا يناقش الاوضاع العنصرية في الولايات المتحدة أو عليه أن يقول ما تريد وزارة الخارجية أن تقنع العالم به · وتعترض الحكومة عليّ أنا بشكل خاص لأنني اشتراكي » ثم يحذر ديبوا من أن تصبح أفريقيا أداة في يد القوى الاستعمارية ، يقول : « وأثق أن كتّاب العالم السود سوف يفهمون عذا ، ويضطلعون بمهمة قيادة افريقيا الى طريق النور ، وليس الى الوراء ، الى الاستعمار الجديد ، حيث يضع رأسمال بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة يده في يد رأسمال افريقيا لاستعباد الأيدي العاملة الافريقية مرة أخرى » ·

ويا أرملة المناضل الطيبة لا علاقة للألوان بهذه المسائل ! وأرملة المناضل تصحبني الى خارج الفندق وتركب معي الأتوبيس فتية ونشطة كامرأة في العشرين ، ثم تجلس معي في أحد مقاهي الجامعة تحكي عن القاهرة وأمهرست وطفولتها ونكروما وبن بللا وشوين لاي ، وأنا أنصت للذي تقول ، وأفكر في الفندق الذي يحمل اسم القائد البريطاني اللورد جيفري أمهرست·كان قائدا عظيما ، تقول دائرة المعارف ، أبلى بلاء حسنا في حروب بريطانيا في العالم الجديد في مطلع القرن الثامن عشر حتى أن اسمه أطلق على بلدتين ، احداهما في الولايات المتحدة والأخرى في كندا · ترى كيف أبلى اللورد

جيفري بلاء حسنا في حروب بريطانيا الاستعمارية وكم من سكان القرى الأصليين أباد وبأي معدل ؟ هل حصدهم ببنادق رجاله أم أنه كما تقول الحكايات أهداهم أغطية مغموسة بالجراثيم فلما تدثروا بها لم يطلع عليهم صباح ؟ المهم أن الرجل أبلى بلاء حسنا ولم يعد في أمهرست هنود ·· ولا حتى هندي واحد !

وهذا الفندق ، فندق اللورد جيفري ، يبدو صغيرا وجميلا ومتميزا وأنا أقترب منه لتوصيل صديقتي العجوز أودعها عند الباب · ما ان تدخل حتى أدير ظهري · ولكنني هنا في أمهرست الكائنة بالولايات المتحدة ، وصلتها بالأمس ، وأيّان أولي وجهي فأنا الآن فيها ، ولشهور طويلة قادمة · اذن سأعود الى برينس هاوس لآتي بالهدية التي اشتريتها لمايكل من لندن وأذهب اليه في القسم أفاجئه بوصولي ·

طرقت الباب ودخلت · جذبت الشريط عن الورقة الملفوفة وأنا أقول :

ـ انها لا تضاهي تلك الصورة الاخرى وهو يركب حصانه بين الاحراش والتي تعلقها في بيتك · لكن هذه أيضا جميلة !

فردتُ صورة مصقولة على خلفية من الاحمر الناري لوجه تشي غيفارا مرسوما بالحبر الاسود ·

ـ هذه لكي تعلقها هنا في مكتبك بالجامعة !

ترى هل سيكون هذا الحفل كبيرا كذلك الذي أقيم في نهاية العام الماضي تكريما لمايكل بمناسبة استقالته من رئاسة القسم ؟ ليلتها اكتظ المكان بالمدعوين وفاضت بهم ممرات

البيت بما في ذلك المطبخ ، وحين بدأ الرقص بدا وكأن ألواح أرضية البيت الخشبية العتيقة سوف تهوي تحت أقدام الراقصين وهم يدقون الارض بانتظام على ايقاع الموسيقى الصاخبة • كانت رسالة الاستقالة التي قدمها مايكل ثلويل الى مدير الجامعة وأطلعنا عليها تكشف أن هذا الشاب الجامايكي الفارع الطول الذي كُلّف وهو دون الثلاثين بمهمة تأسيس قسم للدراسات الافرو ـ أمريكية ، وهو الأمر الذي قام به فعلا في السنوات اللاحقة ، شاب موهوب ومتميز يبدو وسط تكالب الغابة الامريكية كفارس عفيف وجهته مغايرة • أقيم حفل التكريم في بيت احدى المدّرسات بالقسم وامتد حتى الساعات الأولى من الصباح ، وحين غادر المدعوون مجاملة وأوغل الليل ساد صمت كأن الباقين على اتفاق ، وأخذت امرأة جنوبية سوداء تترنم بأغان شعبية من أغاني العبيد في المزارع ثم راح صوتها يعلو في هدأة الليل حادا وقاطعا كأنها تشهد الخلق على وجع الزمان تقاضيه •

لماذا تتسم حفلات الافرو ـ أمريكيين بكل هذه الحيوية كأنهم يحملون معهم الى بيت الحفل سلالا أودعوها ثمار العمر من قدرة على الحياة والفرح والأحزان ؟ وها أنا الآن ذاهبة الى حفل أفرو ـ أمريكي آخر ، حفل زفاف ، فالليلة يتزوج مايكل من صديقته كيسي أم الطفلين الجميلين • وأبكر في الذهاب أحمل معي هدية للعروس شالا اشتريته من أحد أزقة ذلك الخان القاهري العتيق الذي تتسرب شوارعه وتتفرع من ساحة المسجد الحسيني ذي المئذنة الرشيقة الواحدة • هذا شال فلاحي مصري شمسي اللون هدية تليق بالخمرية كيسي • وأدخل البيت المكتظ هذه المرة أيضا بعشرات المدعوين • كان

مايكل يلبس قميصا افريقيا فضفاضا تزينه خطوط سـوداء تتداخل في أشكال هندسية جميلة · البيض في المدعوين قلة ، أم العروس وعدد من الأساتذة من أصدقاء مايكل · لماذا فـي الغربة نتشبث بالجذور هكذا ونروح في كل محفل نؤكـد هويتنا ، وهل هو الخوف أم الحنين ، أم أنه الزهو بحكايتنا المغايرة ؟ حين رأيت صديقي الغاني يلبس قميصا افريقيا أبيض موشّى بالتطريز العربي حول فتحة العنق لاحظت أنني أيضا قد جئت برداء شبيه موشى بالتطريز الفضي ، وكان كل الأفارقة قد جاءوا على غير العادة في حياتهم اليومية بالجامعة بملابس مميزة لمناطقهم أو بلدانهم ·

ولما كان مايكل غريبا في الولايات المتحدة وافدا عليها ، فلم يحضر حفل زفافه أحد من أهله · ووقف يستقبل الضيوف ويرحب بهم ويقوم بدور العريس وأهله · وكان قد قام بطهو طعام العرس بنفسه ، كمية هائلة من أكلة جامايكية مكونة من الأرز وفول الصويا واللحم ممزوجة ومتبلة بالفلفل الحار ·

قالت لي زوجة أستاذي وهي امرأة صغيرة الحجم تقارب الستين تعقص شعرها الفضي الى الخلف :

ــ لقد كان أبي يا رضوى يهوديا من وسط أوروبا ، كان يهوديا ، ولكنه لم يكن أبدا صهيونيا ·

هل لاحظت شيئا من نبرة اعتذارية في حديثها أم توهمت ذلك ؟ فاجأتني كلماتها · كنت أعرف أن زوجها ، المشرف على رسالتي ، من أصل يهودي ، ولكني كنت أعرف أيضا أنـه شيوعي · لم أكن أتوقع أن يثار موضوع الدين ، على الأقل ليس هكذا بلا مناسبة · كانت المرأة قد شربت ذلك القدر الذي يجعل الانسان الطيب أكثر طيبة يرنو الى الآخر ، يقترب

منه بغية التواصل ، مسقطا حواجز الانكماش والقلق من عدم تقبل الآخرين . بدت لي السيدة في سـن أمـي ، أردت أن أقبّلها وأقول لها كلمات حنونة ، ولكني لم أكن شربت بما يكفي لمغالبة حيائي .

كان ضوء الممر الذي وقفت فيه مع زوجة أستاذي هـو مصدر الضوء الوحيد لصالة البيت التي أطفئـت أنوارهـا وتحولت الى قاعة مكتظـة بالراقصين . وراح شاب افرو ـ أمريكي يحمل صفارة معدنية صغيرة يطلقها بين الحين والآخر خالقا فواصل للموسيقى وحالة من الحيوية الاستثنائية والمرح. شاب أسمر له وجه باسم وشارب ولحية ويتحدث بصوت عال، ويمد حروف الكلمات بذلك الايقاع المميز لحديث السود في الولايات المتحدة . والعريس مايكل يروح ويجيء كأم العروس في المثل المصري . وأحد الخبثاء من زملائنا بالقسم يميـل عليّ كامرأة من عواجـز الفـرح ويهمس في أذنـي وعينـاه تلمعان :

ـ أتعرفين ما الذي يدور في الخارج ؟

ـ ماذا ؟

ـ هناك سيدة أتت من واشنطون بسيارتها تقف خـارج البيت تقول انه ما دام مايكل سيتزوج فهي الأولى بذلـك ، وتهدد برجم البيت بالحجارة . من المؤكد أنها مجنونة !

أجبته وأنا أضحك :

ـ لو طال بنا المقام في هذا البلد الكريم فما أدراك كيف ينتهي الحال بنا !

وقالت صديقتي الأفرو ـ أمريكية العجوز :

ـ أتعرفين أن مايكل اختار أن يتزوج في ذكرى ميلاد ديبوا ؟

ومال عليّ أستاذي حين مررت بالقرب منه وصرخ في أذني حتى يصلني ما أقول عبر الموسيقى الصاخبة ٠

ـ لقد قرأت فصلي الرسالة ٠

ثم أبعد فمه عن أذني٠كنت أحدّق فيه بعينين مستفسرتين في انتظار المزيد ٠ ومال علي مرة أخرى :

ـ في الفصل الذي تتناولين فيه نهضة هارلم تركزين على كتابات آلين لوك كأن لم يكن هناك غيره ٠٠٠ سنتكلم في ذلك بالتفصيل على أي حال ٠٠٠ سنتكلم في وقت آخر !

لو أستطيع فقط أن أنتحي ركنا أغربل هذا القلق الذي اجتاحني بكلمات أستاذي ٠ لا مكان للجلوس ٠٠٠ عيناي تبحثان عن مكان أقف فيه في هدوء لدقائق ٠ الشاب صاحب الصفارة يطلبني للرقص ٠ قلت له وأنا أتبعه :

ـ سأخيب ظنك ٠ انني راقصة رديئة وهذه الرقصة بالذات تكشف رداءتي !

ضحك الشاب قائلا :

ـ سأعلّمك !

لماذا بعض الناس خفيفو الروح يثيرون الألفة والارتياح ؟ هذا الشاب لا أعرفه ولكن وهو يعلمني هذه الرقصة يذكرني بأحب اخوتي الثلاثة الى نفسي ٠ حين رقصت قبل دقائق مع ذلك الرجل الابيض الذي يدّرس بقسم اللغة الانجليزية راعني أنه لا ينظر أمامه وهو يرقص ٠ لماذا طلبني للرقص اذن ؟ كان مستوعبا بشكل مطلق في ذاته فلا يرى الآخر أمامه ٠ ذّكرني

الرجل بشخوص « الارض الخراب » الذين يسيرون في دائرة وقد ثبّت كل عينيه على قدميه • « لقد سمعت دورة المفتاح في الباب مرة ، مرة واحدة » • تتحول العيون وتنسحب ، تنغلق بوابات الروح وتتأكد عزلة السجناء برغم الدنيا الواسعة • لماذا طلبتني للرقص أيها الرجل الامريكي ؟ ها قد أصبتني بالكآبة ! والشاب الامريكي الأسود يعلمني الرقصة فلا أتحرج من ثقل جسدي المتعثر في الحركة ، ويسميني « أختي » على عادة الافرو ـ أمريكيين فيما بينهم ، ويرقص ، ويطلق صفارته ، ويضحك ، ويثرثر ، لقد أتى الى بيت العرس حاملا هديته سلة من الفرح !

شرعت في كتابة فصل ثالث من الرسالة في الوقت نفسه الذي رحت أعدّل بعض أجزاء من الفصلين اللذين سبق أن كتبتهما في القاهرة • كانت ملحوظة أستاذي ليلة الحفل قد أثارت قلقي ، فكان أول ما فعلت صباح اليوم التالي ان أعدت قراءة ما كتبت بعين متربصة ناقدة • ولما التقيت بعد ذلك بأيام بلجنة الاشراف فوجئت بما لم أتوقع من قبول بل وتقريظ ، وبدا أن ملحوظة الاستاذ كانت هي مأخذه الاساس على ما قرأ • خرجت من هذا اللقاء بدفعة حملتني متحمسة الى المكتبة أجتهد لتحسين ما كتبت ولانجاز ما تبقى علي من فصول في الرسالة كانت قد بدأت تتخذ شكلا شبه نهائي في ذهني •

رحت أعمل بدأب واقبال لم يعد مصدرهما رغبة في التحصيل السريع بل اهتمام عاد يتملكني بالموضوع الذي أبحث فيه •

أقضي الصباح غالبا بين أرفف الكتب والدوريات بالمكتبة،

أستكمل هذا الجزء أو ذاك مما اشعر به ناقصا في المادة التي أجمعها ، وفي المساء والليل أجلس في حجرتي التي أصبحت لي وحدي أجمع أفكاري وأرتبها وأجلس للكتابة ٠

وفي اليوم متسع ، أغادر المكتبة عند الظهر لكي آكل وجبة سريعة في مقهى مركز الحرم الجامعي المواجه لمبنى المكتبة ، ثم أعود الى المكتبة أو حجرتي لمواصلة العمل ٠ في أول كل شهر أحمل النشرة الخاصة بالبرامج الثقافية المشتركة للجامعات الخمس أختار ما أنوي حضوره من عروض ومحاضرات ٠

ولا شيء يعيق حماس المرأة الصغيرة تتدثر بالمعطف الثقيل وغطاء الرأس الشال الصوفي وتنزل الى كلية هامشير لحضور فيلم من شيلي ٠ الأتوبيس تأخر ولسعة البرد تنفي التفكير في سواها ٠ الثلوج غامرة ودرجة البرودة تتجاوز العشرين تحت الصفر والمرأة كقنفذ صغير تبغي اخفاء رأسها وهي ليست بقنفذ ٠ والأنف يتجمد ، تأخر الأتوبيس ٠ والبرد ساعة العودة أشد ولكن ذلك الذي شاهدته فذ ، غدا سوف أذهب لمشاهدة آخر ٠

في الوقت متسع ، والعشاء في الوحدة كئيب ، تلوك المرأة الأكل تفتقد له طعما يميزه ٠ ويا آنا تعالي غدا لتناول العشاء معي ٠٠٠ ويا سوزي وكلارا هل تأتيان الاسبوع القادم للعشاء معي ؟ وما رأيك يا راشنا في المجيء مع راجندار لتناول العشاء معي ؟ نعم الآن لو أردتما ٠ وفي جمع الصحاب يختلف المذاق وتستبدل المرأة الغريبة جلستها وهي تأكل محدقة في فناء الغرفة برفقة ظلها الممتد أمامها بالصخب العفوي ٠ وهذا

المكتب حين يمتد عليه غطاء أبيض من الورق يصير مائدة أنيقة ، ترتب الصحون والأكواب الكرتونية عليها ، ثم نجلس نأكل ونثرثر وندخن في انتظار أن يغلي الماء لنصنع القهوة خاتمة العشاء وسيدته ٠

ولكن الصحاب لا يأتون كل يوم ٠ ووجبة المساء كل يوم تتكرر ٠ قطعة من الدجاج أتبلها بسرعة وألفها بورقة فضية وأتركها في الفرن نصف ساعة ، وأفتح علبة من الذرة المسلوقة أسخنها في علبتها ، وأخرى من البنجر المحفوظ وأضعها في طبق كرتوني ويكون العشاء سريعا في اعداده وأكله ، ثم آخذ كوب القهوة وأنزل لانجاز ذلك الطقس اليومي الآخر الاكثر اثارة ، مشاهدة نشرة أنباء الساعة السابعة مساء في قاعة التلفزيون ببرينس ٠ نجلس أمام الجهاز الكبير المرفوع على رف خشبي أمامنا نتابع آخر الاخبار العالمية والمحلية تقطعها الاعلانات التجارية عن منتجات مستحدثة أو قديمة ، معجون للأسنان ، مسحوق للتنظيف ، مأكولات ذات قيمة غذائية عالية للقطط والكلاب ، ملابس داخلية ، قروض بنكية ، ثم يتابع المذيع ما لديه من أخبار ، وحين تنتهي النشرة يتفرق العشرات الذين كانوا في القاعة يتابعونها ٠ وينصرف كل الى أشغاله ٠ وأنصرف الى حجرتي للكتابة بالانجليزية ٠ أكتب مسودة صفحات أضيفها لما أنجزت من الرسالة ، وبالعربية أكتب رسائل تفيض بحنين المرأة الوحيدة الى القاهرة ٠

٩

ذابت الثلوج وبدا الربيع وشيكا وان بقيت على حالها الاشجار عارية الفروع يصفر بينها هواء قارس · ورحت أواصل دراستي وأنجز وأتواصل رغم الاختلاف مع رفاق البيت الواحد · وأنتظر كل يوم ساعة توزيع البريد أمام الصندوق الصغير الذي يحمل لي الفرح أو اللاشيء · وتأتيني في المساء أحيانا مكالمة تلفونية من صاحبتي الافرو ـ أمريكية العجوز تحمل لي خبرا عن البلاد التقطته لتوها من مذياعها الاسود الكبير · يتوغل مارس وينقضي ، ويأتي أبريل بالأمطار الغزيرة وآلام الروماتيزم المبرحة · هل هي قسوة ابريل القصيدة حين يقلّب بشبقه المطري مواجع الجسد المحروم ، أم أنه حنين الجسد لطمي تربته السهلية فاض الى حد الوجع ؟ أمطار تنسكب على الارض بلا هوادة أو نهاية ، أرقبها من نافذة حجرتي وأواصل الكتابة · وزميلتي الجديدة التي تسكن الحجرة المجاورة تدعوني لتناول كوب قهوة بحجرتها ، وتعرّفني بنفسها ، وتحكي لي بحماس عن عملها كمتطوعة « بفيلق السلام » في تايلاند · وقهوتك أيتها المرأة الامريكية الشريرة أو البلهاء تقف بحلقي كما حديثك عن

مهمتك النبيلة في نشر الحضارة في ربوع الغابة الآسيوية ·
وصديقتي الامريكية الاخرى التي تعرفت عليها في بداية اقامتي في أمهرست ، والتي تدرس في كلية التربية صارت تربكني بأسفارها المتكررة · وأقول ونحن نأكل معا : هاتان العينان العسليتان الصافيتان لا تحملان الا خيرا ، أم أنني لا أفقه شيئا في هذا الوجود ؟ ولكن كل من في الجامعة يعرف العلاقة بين قسم التربية الدولية فيها ووكالة التنمية الدولية ، وصاحبتي تسافر الى ايران لتسهم في برنامج لمحو الأمية ، وأنا أسأل : شريرة هي وأنا لا أفقه في البشر أم هي بلهاء وأداة ؟ هذا البلد لا يُقرئنا الأمان ، أروح أنكمش وأفرز من الحرص قشرة تحميني من ورثة المؤسسة ·

أستمع لمحاضرة قائد هندي من السكان الاصليين يتحدث عن الحركة الهندية الامريكية التي تأسست عام ١٩٦٨ ووحدت داخلها أكثر من عشرين منظمة · أنصت لحديثه عن خرق السلطة المتكرر للاتفاقات المبرمة بينها وبين الهنود · « وصل عدد الاتفاقيات ٣٧١ اتفاقية ، عقدت جميعا لتخرق · كل اتفاقية منها كانت تحدد الاراضي الهندية التي لا يجوز لحكومة الولايات المتحدة التدخل في أمورها ثم تخرق حتى لم يبق لنا سوى المعازل » · قال الرجل النحيل وعلى شفتيه شيء من ابتسامة : « لقد أنجبت ثلاثة عشر طفلا ··· هذه أيضا قد تكون طريقة للمقاومة ! » والرجل أمامي بهيئته المميزة ، ضفيرتيه والسير الجلدي حول رأسه وعقد الخرز الملون في رقبته وسترته المشرشرة ، يخرج من سياقه السينمائي الزائف الى التاريخ مكانه فأنتمي اليه وأتعلم ·

وأشتعل بالتصفيق والحماس لرجال شيليين يقفون على المسرح بعباءاتهم الشعبية يحملون آلات النفخ الآندية · هل

يبكون قتلاهم أم يمجدون الحياة أم يفعلون الأمرين معا ؟ ذكرُ المذبحة لا زال يدور ، أستمع لبعض تفاصيلها من زوجة قتيلها الاول ، أللندي في كنيسة صغيرة ملحقة بجامعة ييل في نيوهفين • أتوجه برفقة بعض الصحاب لحضور مؤتمر يعقد ليوم واحد عن نشاطات المخابرات المركزية الامريكية • وفي المساء ، في برد ابريل ، نقف بباب الكنيسة ننتظر أن يفتح بابها للاستماع الى محاضرة مسز أللندي • أهتف مع الحاضرين لحكومة الوحدة الشعبية و « للشعب الذي لن ينهزم ما دام متحدا » ، أهتف كواحدة من أهالي القارة الجنوبية الملاحقين في الشوارع بالعصي والقنابل المسيلة للدموع •

ذكر المذبحة يدور • أشتري اسطوانتين لأغاني فيكتور هارا وتروح آنًا ، صديقتي البورتوريكية ، تترجم لي ما يستعصي عليّ فهمه من كلمات ، وعلى مغلف احدى الاسطوانتين قصيدة هارا عن الخمسة آلاف معتقل في استاد سانتياغو والتي كتبها قبل أن يقطعوا يديه ويقتلوه • ما للمذابح تسكنني أم أنها تسكن هذا الزمان ولست غير شاهدة ؟

وأمر في الطريق بمحل بوسط البلدة يبيع الجبن والمشروبات فأدخله لأشتري فتستوقفني الى يمين الباب بطاقة صغيرة بين عشرات البطاقات الأخرى عليها رسم جمل • وأتوقف أمام هذا الجمل الصغير كطفل كأنني بالمصادفة شاهدت في المرآة نفسي • هل هي طرافة الرسم الذي يبدو كواحد من الرسوم المتحركة في فيلم للأطفال أم هي نظرة العتب الحزين في العينين استوقفتني ؟ أدفع بالقروش القليلة الى البائعة وأحمل البطاقة وأسير عائدة باتجاه الجامعة أستعيد

بعض أبيات « الولد الفلسطيني » دحبور الخارج من مذبحة أيلول :

ويا جمل المحامل سر بنا فطريقنا شوك
وليس بغير ضرسك يُطحن الشوك

وأصل لحجرتي ، أخرج البطاقة الصغيرة ثم أجلس لأكتب عليها لمريد بضع كلمات عن كل ذلك .

رغم واقعة العشاء التي كدت أطبق فيها على عنق جارتي (المتطوعة في «فيلق السلام» سابقا) حين قالت لي وهي في حجرتي ان عبور المصريين الى سيناء عام ٧٣ غزو واعتداء وما كلفني الشرح الهادىء من جهد عصبي ، رغم هذه الواقعة فانني كنت في الايام الاخيرة من ابريل في حالة من التصالح العام مع الوجود ونفسي لم أعشها منذ وصولي الى الولايات المتحدة . هل هو التخفف من ملابس الشتاء الثقيلة ورؤية النوافذ المشرعة على الاخضر في الشجر ؟ أم أنه شعوري بالانجاز ولم يتبق على انهاء الرسالة سوى كتابة الخاتمة والمقدمة ؟ أم أنها قصيدة مريد الجديدة « سعيد القروي وحلوة النبع » التي اتتني بالبريد كفرح مباغت أستجيب له في الحال بارسال برقية تهنئة ؟ أم كانت تلك الأمور مجتمعة وشيء آخر يأتي رحت أتابعه عبر الصحف ونشرات الاخبار ووجوه الناس ؟ وكنت أنتظر وصول مريد في منتصف مايو وأرغب في مفاجأته بأنني سلمت الرسالة كاملة لكي تطبع على الآلة الكاتبة قبل عرضها على المشرف ، وبهدية صغيرة أخرى وهي ترجمتي الى الانجليزية لقصيدته الملحمية الطويلة .

هكذا رحت أعمل كورشة صغيرة متعددة الأقسام ، أكتب في الرسالة ، وأترجم في القصيدة ، واشارك بشكل يومي في أسبوع لحركات التحرر الوطني ، نناطح الصهاينة ، ونوزع أدبياتنا ، ونعلن تضامننا مع ممثلي المنظمات الوطنية والديمقراطية • وأتابع عبر النشرة الاخبارية في التلفزيون آخر أخبار الحرب الفيتنامية • وحين يوغل الليل حتى يكاد يطلع عليه صبح جديد تسكن الورشة الصغيرة وتغلق رضوى عينيها استعدادا للنوم •

في الشارع جلست على المقعد الخشبي في انتظار الأتوبيس أفكر في تلك الفتاة الهندية الحمراء النحيفة التي تعزف على آلة نفخ شعبية والتي شاركت في أسبوع حركات التحرر • لماذا أربكتني كلماتها هكذا أم أن الحكاية عن قرب هي المربكة ؟ هل هكذا التاريخ كالشلال جارف ؟ وأي أمل في وصل ما انقطع ؟ أيتها الفتاة الهندية النحيلة ، أخاف حكايتك ويوجعني صوت مزمارك ، وما العمل ؟ وأركب الأتوبيس الاصفر الذي يحمل اسم الجامعة وبيدي الفيلم السينمائي الذي أريد اعادته الى نيويورك ، أنزل في وسط البلدة وأدخل مكتب البريد ، أدفع بالفيلم الى الموظف وأنتظر أن يخبرني بالمبلغ المطلوب ، وأنا أفكر كم أن اختيارنا لهذا الفيلم كان موفقا • فيلم تسجيلي من اخراج مجموعة من الشباب الامريكيين اسمه « ثورة حتى النصر » يربطون فيه عبر مجموعة من الصور الوثائقية بين جرائم النازية ضد اليهود وجرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني • فاقت الاستجابة كل توقعاتنا فعرضنا الفيلم ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان الحاضرون يصاحبون غناء الفدائيين في خاتمة الفيلم بالتصفيق المنتظم

وبتكرار كلمة فدائي التي بالنشيد · ليت مريد هنا ، اذن لشاهد الفيلم وجاء معي الليلة الى حفل الفرقة الدومنيكية !

قبل العودة الى برينس هاوس مررت بأحد المقاهي وتناولت وجبة سريعة ، أي سندويتش هامبرغر وكوبا من القهوة ، وعدت الى البيت · غسلت وجهي وجلست الى المكتب لأنجز شيئا مما عليّ قبل الذهاب الى الحفل في الثامنة مساء ·

كانت فرقة « اسبرسيون هوفن » ستقدم حفلا تلك الليلة الموافقة مساء ٢٩ ابريل باحدى قاعات « ساوث ويست » احياء للذكرى العاشرة لغزو القوات الامريكية لجمهورية الدومينيكان · وكان حفلها يشكل الليلة الختامية لأسبوع التحرر الذي أقامته مختلف المنظمات الوطنية والديمقراطية في الجامعة ·

اكتظ المكان بالطلاب الذين شارك معظمهم في نشاطات مهرجان التحرر على مدى الأيام الستة السابقة · لم تكن القاعة كبيرة ولم يكن بها مسرح ، ومع ذلك كان كل شيء قد أعد لاستقبال الفرقة ، فنصبت منصة خشبية صغيرة وأمامها مباشرة وضعت صفوف من الكراسي المتلاصقة تركت هوامش في الجانبين تسمح بوقوف من لا مقعد له · وهكذا حين دخلت الفرقة بدا المكان وكأنه حشد كبير من البشر يحيط بأربعة من الشباب العازفين المغنين · افتتح أحدهم الحفل بكلمة سياسية عن المناسبة ثم بدأوا بأغنية لفكتور هارا أعقبوها بأغنية من أغانيهم وراح أحدهم يعلّم الحضور لازمة الاغنية ويطالبهم بالمشاركة في الغناء · واشتعلت المشاعر المشتعلة

أصلا بفعل ستة أيام من العمل التحريضي وراح الكل يغني ·
وقالت فتاة صغيرة الحجم شاحبة الوجه ، تجلس بجانبي :

ـ تصورت أنني سأحضر حفلا موسيقيا ، ولم أكن أعرف أنني جئت لمظاهرة !

وتأففت · فابتسمت وقلت بصوت عال حتى لا يفوتها ما أقول :

ـ أما أنا فكنت أعرف !

وتابعت الغناء ·

هل كان حماسنا تلك الليلة مصدره نجاح الأسبوع الذي نظمناه أم هذه الفرقة وأغنياتها الجميلة ، أم أننا كنا قد بدأنا نعي من خلال متابعتنا للأخبار كل يوم وان كنا لم نستبق الاحداث بأن حقبة من التاريخ تنتهي لصالحنا ؟ وهل كان ممكنا أن يعلن النبأ علينا في جو احتفالي أبهى من ذلك ؟ لقد أتى بشير لم يهبط علينا من قمم الأولمب ولا تحمل هيئته شيئا من الشعر أو الاسطورة ، شاب نحيل ينسدل شعره الاشقر الناعم الى كتفيه ويلبس قميصا عتيقا من قماش صوفي خشن وبنطالا من الجينز الكالح · سار مباشرة الى حيث تقف الفرقة ، فتوقف العازفون ، اقترب من المغني الذي بيده الميكرفون وهمس في أذنه · فأعلن المغني :

« سقطت سايجون في يد الثوار ! »

كان مشهد جلاء آخر رجالات اليانكي من سايجون عبر ثقب في سطوح سفارتهم حيث انتظرتهم طائرة هليكوبتر مصدرا لحالة من الهستيريا العامة · سقط العلم الامريكي

وسط أنقاض الحرب الفيتنامية ، وكان على المؤسسة أن تنكر تلك الصورة وأن تقدم بدائل لها ترضي الغرور الوطني وتكرس الأوهام عن الذات ، هكذا راح الاعلام يتغنى بأمريكا الجميلة ، وبحلمها النبيل ، وبالأم الامبريالية العطوف وان رد لها بعض أولادها عطاءها جحودا • وأخذت محطات التلفزيون تقدم مقابلات مع أسر أمريكية تبنت أطفالا فيتناميين قبل ذلك بسنوات •

ثم نقلت وكالات الانباء خبر طائرة النقل الامريكية التي حملت الى الولايات المتحدة عدة مئات من الاطفال الفيتناميين انقاذا لهم مما لحق ببلادهم من هول • وجلس الامريكيون أمام شاشات التلفزيون يتابعون في نشرة أخبار السابعة مساء الرئيس فورد وهو يستقبل الاطفال في المطار ويحمل بين ذراعيه طفلا رضيعا من بين ركاب الطائرة • والمؤكد أن رجالا ونساء عديدين ممن يسكنون الى الوهم الامريكي المسمى حلما قد مسحوا دموعهم سرا أو على مرأى من آخرين أمام هذا المشهد الذي يمس شغاف القلوب ويؤكد «الاحسان الامريكي»، والمؤكد أيضا أن العديدين ممن يعون الطبيعة الكابوسية للحلم أو يعيشون خارج سياقه قد تابعوا المشهد بمزيج من الارتياح والمرارة وهم العارفون بالبئر وغطائها • وقد يكونون ضحكوا ساخرين من تمثيليات « التسامي الوطني » أو سبوا المؤسسة وممثليها ، أو شربوا وهم يتذكرون مظاهراتهم المناهضة للحرب نخب المدينة المحررة ثم خرجوا بعد ذلك يسعون في الارض وقد أودعوا مخلاتهم القماشية الكالحة المعلقة على ظهورهم وزر فيتنام جنبا الى جنب مع الآثام الوطنية الاخرى •

أما لنا نحن الوافدين من أبنـاء وبنات العـالم المجلـود بالسوط الامبريالي فلم يكن خبر التحرير ورفع علم الثوار على سايجون مجرد خبر مفرح تمنيناه وتناقلته وكالات الانباء يوما فتحققت الأمنية ، بل كان الأمر يخصنا ويدخل في صلب حكايتنا وتاريخنا ومستقبلنا ، يؤكد لنا أن ما نراه ونعتقده ونقوله ونتوقعه ونعد له ، في نهاية المطاف ومهما بدا غير ذلك، هو الصحيح الذي لا يصح سواه • كان العلم الامبريالي قد سقط وكنا قد شاهدنا كيف !

١٠

أمسكنا بمطرقتين وأخذنا أنا وزميلة لي نتعاون في فـك قوائم السريرين • حملنـا الاطـارين المعدنيين ووضعناهمـا متلاصقين تحت الواجهة الزجاجية العريضة للحجرة ، أعدنا اليهما الحاشيتين وفرشناهما بملاءة بيضـاء كبيرة كأنهمـا سرير واحد ، ثم وضعنا أخيرا الغطاء الازرق المنقوش بورود صغيرة بيضاء والذي كنت اشتريته في اليوم السابق • ولما انتهينا من ذلك أصبح في الحجرة بدلا من السريرين المفردين ذوي الأعمدة واللذين كنت أستخدم أحدهمـا للنوم والآخـر كأريكة للجلوس سرير مزدوج لا يرتفع عن الارض سوى بضع سنتمترات • وكنت أستعد لاستقبال مريد •

انتهيت من كتابة الرسالة قبل ذلك بيومين ، وسلمـت المخطوطة كاملة الى من ستقوم بطباعتها على الآلة الكاتبة قبل عرضها على المشرف ، واستطعت بعد بحث أن أجد مسكنـا مناسبا في الأجر والموقع واتفقت مع صاحبته التي تدرس في الجامعة على موعد اخلائهـا له • ثم حدثـت مسز روبنسون مديرة برينس عن مجيء مريد ، وأخبرتها أنه سوف يقيم معي

في حجرتي لاربعة أيام الى أن ننتقل الى الشقة التي استأجرتها ·

وبدا لي كل شيء في ذلك اليوم المشمس من أيام شهر مايو كما أردته أن يكون · نظفت الحجرة في الصباح وأعددت طعاما ، ثم تحممت وبدأت ألبس وأتزين استعدادا للذهاب الى المطار · ارتديت لباسا من قطعتين ، جونلة يتداخل في نسيجها الصوفي اللونان الرمادي الفاتح والزيتوني الداكن ، وبلوزة من الصوف الخفيف زيتونية اللون مفتوحة بعض الشيء عند الصدر ولها كما طويلان · وحول رقبتي عقدت سلسلة من فضة فاستقرت على صدري أعلى الثديين حلية فضية جميلة من مشغولات القبائل الصغرى في الجزائر ، كحلت عيني ثم رحت أصفف شعري الذي طال على غير المألوف حتى كاد يصل كتفي ، ثم نظرة أخيرة في المرآة ففاجأني الى حد الدهشة جمال المرأة أمامي · ما الذي يحدث لهذه المرأة الصغيرة حين تستعد للقاء حبيبها ، وأي شيء ذلك الذي يطرأ عليها فتتألق هكذا كنجمة أو قصيدة ؟ هل هو الفرح يليق برضوى حين يسكنها كما رائحة الليلك تسري ساعة الغسق عبر النوافذ المشرعة ؟ أم أنها الأنثى يليق بها الصحو ؟ وألبس جوربي وحذائي ثم أتصل تلفونيا بالمطار للتأكد من أن الطائرة ستصل في موعدها ·

وكم مرة يا مريد افترقنا ، وكم مرة سوف نلتقي ؟ وتلك الغصة في الحلق ساعة يمضي واحدنا الى داخل المنطقة الجمركية ليجلس متجاهلا ذلك الثقل المتزايد بأسفل المعدة في انتظار الاعلان عن موعد الطائرة · ولماذا في كل مرة نفترق أو نلتقي فيها تبقى صورتك هكذا حاضرة التفاصيل ، مشيتك ، لفتة رأسك ، قصة شعرك ، نظرة عينيك الصغيرتين من وراء

زجاج نظارتك ورموشك ، حتى شكل حذائك ولون جوربك ؟

وعبر الواجهة الزجاجية لقاعة الانتظار بالمطار ألمحك تأتي فتأتيني فرحة ناعمة كرأس عصفور مبلل وأخضر ينقر قشر بيضته ويطل ، ثم تخرج الي ونلتقي ، نتعانق وكأننا الولد والبنت اللذان أضاع العشق عقلهما فراحا يركضان كمهرين ولكن لا مكان لركض خيول في هذا المطار الامريكي الحديث الذي تشبه بناياته علب الثقاب الكرتونية . نسكّن فرحنا الأهوج داخلنا ونجلس متجاورين في السيارة التي تحملنا من المطار معا هذه المرة الى أمهرست .

وفي حجرتي بالجامعة نتبادل القبلات والاخبار ، ونتناول العشاء ، ثم نجلس على السرير ونشرب قهوتنا وندخن ونمارس ذلك الطقس الجميل بين صديقين حميمين قديمين التقيا ، طقس الافضاء والثرثرة والتواصل بعد غياب .

من القاهرة حمل لي مريد بنا عربيا وسجائر كليوباترا التي أفضلها وبعض تفاصيل ما حدث بمدينة المحلة الكبرى . قال مريد :

ـ اعتصم العمال وأضربوا وسيطروا على المدينة تقريبا . وسمعت أنهم أقاموا معرضا باحدى الساحات علقوا فيه على حبل بعض ما وجدوه من لحوم ودجاج في مواجهة حبل آخر علقوا عليه أقراص الفلافل . ثم اقتحمت قوات الأمن المركزي المدينة ، بعد أن كانت قد ضربت حولها حصارا لعدة أيام ، واحتلتها .

ـ حدث اطلاق نار ؟

ـ نعم وسقط من العمال عدد من القتلى ٠

ـ كم ؟

ـ لا أدري ، لكنهم أكثر من عشرة ، هذا ما سمعته ٠

هل أبطأنا الخطو على غير قصد ، ونحن نسير باتجاه مركز البلدة ، أم أن خطوتنا من الاصل كانت بطيئة ونحن لا نسعى الى الوصول الى مكان محدد في وقت محدد ؟ ربما لم يكن بطئنا بل كان ثقلا ما في حركة الجسد والساقين « انهم يقتلوننا لأنهم خائفون » رحت أكرر لنفسي ثم أنقل ما أقول لمريد ٠

ـ انهم مذعورون ـ قال مريد ـ حتى أن موت أم كلثوم كان يشكل بالنسبة لهم عبئا حقيقيا لا يعرفون كيف يواجهونه٠ فهم يخشون خروج الناس في حشد الى الشارع حتى لو كان ذلك في وداع ميت !

هل تصدقين أنهم ظلوا لعدة أيام ينشرون في صحافتهم أخبارا متضاربة عن صحة أم كلثوم ؟ فهي يوما قد « ماتت اكلينيكيا » ، ثم هي في اليوم التالي « لا تزال معنا » وكأنهم يخشون مجرد الانفعال المفاجيء للناس ، مجرد أن يشعر الناس بأي شيء حتى لو كان الحزن ! وبالمناسبة ماتت أم كلثوم وأذاعوا مرات ومرات أغانيها العاطفية وتجاهلوا تماما كل أغانيها المرتبطة بالمد الوطني في الخمسينات والستينات » ٠

كنت قد شاهدت طرفا من الجنازة في نشرة الاخبار بالتلفزيون ٠ ولم يفاجئني بحر البشر الذي راح يموج حول

جثمانها بقدر ما فاجأ ذلك كل الطلاب الامريكيين الذين رأوا المشهد والذين راحوا يسألونني باهتمام عن حكاية هذه المغنية التي يثير موتها كل هذا الحزن في كل هؤلاء الناس • أجبتهم بأن المرأة كانت مشهورة جدا ، ومحبوبة جدا ، وأنها تربعت على عرش الغناء في مصر والعالم العربي كله لعشرات السنين• وقد تكون اجابتي بدت مقنعة لزملائي الامريكيين أو لم تبد كذلك ، ولكنني حين انتهت نشرة الاخبار وصعدت الى حجرتي كنت أعرف أن ما قلته لا يفسر ذلك التماس النادر بين تلك المرأة وجماهير الناس • هل هو حضورها الانساني وذكاؤها الشديد وموهبتها في الغناء التي فتحت لها الطريق من « الآنسة أم كلثوم ابراهيم » منشدة السيرة النبوية في قرية صغيرة من قرى الدلتا الى سيدة الغناء العربي التي تضبط مؤشرات أجهزة الراديو في وقت واحد من الخليج الى المحيط لتنقل حفلتها ليلة الخميس من مطلع كل شهر ؟ هل هي موهبة المرأة أم أن المرأة بموهبتها تمثلت حاجة عامة وجسدتها وتوحدت بايقاع لحظة في التاريخ ، فصارت ملمحا من ملامحها ؟ وهل يمكن فصل المرأة عن المد الناصري وفرحة العرب وخيلائهم باكتشافهم أنهم أمة واحدة ؟ وهل هناك أبلغ من أغنيات تلك المرأة في تجسيد ذلك الازدواج المميز للبرجوازية العربية في تطلعها للاستقلال وهي على رأس حركة التحرر الوطني واستكانتها لدرجة النكوص الى الماضي وأنماطه ؟ وهل عاطفية المصريين أمر عادي أم أنها سمة مميزة لهذا الشعب ؟ هل أننا نحب أكثر ونحزن أكثر أم أننا فقط نفصح عما لا يفصح عنه الآخرون ؟

ولم أكن أحب أم كلثوم بشكل خاص أو أهتم بمتابعة

حفلاتها بل ويستفزني غناؤها العاطفي وما يكرسه من علاقة عثمانية بين الرجل والمرأة • وكانت عبارات « العـزول » و « الجوى » و « الشجن » و « التقلـب على جمر النـار » و « يا ظالمني » وغيرها مما يكتظ به قاموس أغانيها خارج كل سياق مقبول للعلاقة بين الجنسين في نظري • ولكن الحق يقال انني كنت أستجيب للمرأة وهي تقف هكذا كمؤسسـة وطنية يعلو صوتها الفذ بقصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » أو « والله زمان يا سلاحي » ويهتز جذعها ذلك الاهتزاز المباغت لامرأة مسكونة بما تغني ، أستجيب كأنني نبتة عطشى وكأن صوتها ماء •

ـ ويا مريد لم يذيعوا حتى « مصر التي في خاطري وفي دمي » ؟

ـ ولا حتى « مصر التي في خاطري وفي دمي » •

ـ اذن قرروا انكار وجهها الوطني الاصلي وتكريس وجهها الآخر • انهم منسقون تماما مع أنفسهم ، أقصد في اختيارهم للانحطاط !

ثم رحنا في الأيام التالية نرافق شوارع البلدة وأشجار التلال ، نتبعها الى حيث تأخذنا ، نركض في مساحات العشب الممتدة ، نتسكع عند المنحنى ، نجرجر الخطو في الطريـق الجبلية الصاعدة ، يباغتنا الليلك الجبلي فنجلس في ظله ، نثرثر بـلا انقطاع ، نركـب أتوبيسـات الجامعـة الصفراء والأتوبيسات العامة للبلدة الى حيث تحملنا ، ننزل في القرى المحيطة والكليات المجاورة ، ندخل مقاهيها الجديدة علينـا ، نحتسي القهوة فيها ونأكل وجباتها السريعة ثم نواصل فرحنا

في الشوارع وفي آلة التصوير الصغيرة بحجم الكف ، ونوقف عابرا « هل تسمح بتصويرنا معا ؟ » والرجل يفعل تأدبا وليس عن طيب خاطر ، وكطفلين خبيثين نتطلع باتجاه آلة التصوير في يده نضحك على نظرته الباردة المستخفة فيظن أننا نضحك للصورة ٠

ونجمع حاجياتنا ، نودع برينس هاوس ومن فيه ، وننتقل الى مسكننا الجديد بمركز البلدة ٠ شقة صغيرة من حجرتين بالدور الاخير في بيت حجري من ثلاثة طوابق ٠ وكعصفورين أقاما عشهما بأعلى برج كنيسة ذات سقف خشبي مدبب أقمنا مريد وأنا تحت السقف الخشبي المدبب للبيت والذي ينخفض مائلا من الطرفين حيث المطبخ والحمام فلا يستطيع الانسان أن يقف منتصبا بل عليه أن يحني رأسه تحاشيا للاصطدام ٠ ويسخر مريد مني : « بالله عليك كم مرة ارتطم رأسك بالسقف اليوم ؟ » وأتوزع بين رغبتي في الضحك وألم رأسي من أثر الخبطة ٠ ومن النافذة العريضة الملاصقة للسرير نطل على مساحة من العشب تحيط بكنيسة صغيرة وأنيقة لناقوسها الواحد دقة صافية تأتينا في النوم أحيانا كأنها جزء من حلم مبهم ٠ ثم ينكسر اطار نظارة مريد الطبية فنسارع الى أقرب محل للنظارات بالبلدة « آسفة » تقول المرأة السمينة وهي تعيد لنا النظارة : « ليس لدي اطار مناسب ! » فنذهب الى محل آخر ، ونهدأ بعض الشيء حين يخبرنا الشاب الاشقر المتأنق الواقف خلف العارضة الخشبية عن امكانية تبديل الاطار المكسور بآخر ، ونجلس ننتظر على الكراسي الجلدية الوثيرة المجاورة لحاملات الاطارات الدوارة حتى يأتينا صوت الشاب متعثرا :

ـ آسف جدا لقد شرخت احدى الزجاجتين !

ويمد يده بالنظارة ذات الاطار الجديد والزجاج المصدوع :

ـ اطلب بالتلفون الآن زجاجا بدل الذي كسرته،سيرسلونه لي بالبريد ، يمكنك استلامه بعد أربعة أيام !

ندفع ثمن الاطار الجديد ونخرج بالنظارة المكسورة الى الشارع ، مريد مغتاظ ومنزعج وأنا أتبعه في صمت • ونلتقي إحدى زميلاتي ببرينس ، تعلق على مريد ضاحكة : « طريقة ممتازة لمشاهدة أمريكا للمرة الأولى ، أقصد عبر زجاج نظارة مكسورة ! » ثم نعود بعد أربعة أيام للشاب الذي يستقبلنا بابتسامة ظافرة ، يناوله مريد النظارة ، يستبدل الزجاج المكسور بالجديد الذي أتاه بالبريد ، نتبادل الابتسامات وكلمات الشكر ونغادر•« نستطيع الآن أن نذهب الى نيويورك كما كنا ننوي ، انتهت المشكلة والجو دافيء ولطيف » أقول ملتفتة لمريد • أتوقف محدقة في نظارته • كانت احدى زجاجتيها (الجديدة) تحولت الى لون داكن في ضوء الشمس وبقيت الاخرى على حالها بيضاء !

يخلع مريد نظارته ويحدق فيها ثم ينطلق كالسهم عائدا الى المحل ، وأهرول وراءه •

يقول الشاب في صوت نحاسي هادىء :

ـ لقد كسرت زجاجا واحدا ولست مسؤولا الا عنه !

ـ ولكنك لو قلت لي ان هناك أي احتمال لاختلاف الزجاج لطلبت زجاجتين جديدتين !

كيف يتبادر لذهنك أن يلبس انسان ، أي انسان نظارة كهذه ؟

كان مريد يتكلم بحدة وانفعال . أما الشاب فراح يدير قرص التلفون ويقول ببطء مترفع :

ـ لقد أخطأت في محاولة مساعدتك بتغيير الاطار ، كان يجب ألا ألمس هذه النظارة فصناعتها رديئة وزجاجها من نوع لم نعد نستخدمه في الولايات المتحدة ! عد بعد أربعة أيام !

وحين استلمنا النظارة أخيرا بزجاجتيها المتشابهتين واستدرنا متجهين الى باب المحل كان الشاب يتحدث الى نفسه بصوت خافت ، فلما دفع مريد الباب رفع صوته قليلا :

ـ لو وضعت رجلك في هذا المكان ثانية فسوف أكسرها !

ـ ما الذي يقوله هذا الأبله ؟

سألني مريد وقد خرجنا الى الشارع ، فأجبته ساخرة :

ـ قال اننا ، ونظاراتنا سيئة الصنع ، وربما أيضا أشكالنا، لا تليق بمحله الراقي !

ـ صحيح ما الذي قاله ؟

سحبته من ذراعه مبتعدة عن المكان وأنا أقول ضاحكة : « الآن تستطيع مشاهدة أمريكا ! » .

١١

تحت مظلة واقية من المطر وقفنا في طقس غائـم وبارد ننتظر وصول الاتوبيس الذي سوف يحملنا الى نيويورك · جاء وركبنا ، وبعد أربع ساعات وصلنا المدينة ، وما ان غادرنا الاتوبيس حتى سألنا عن الطريق الى الفندق الذي سوف ننزل فيه ، فعرفنا أن بالامكان الذهاب اليه سيرا · مشينا في شارع عريض غير مزدحم نبحث عن تقاطع الشارع الرابع والثلاثين بشارع برودواي ، بيد مريد حقيبة جلدية صغيرة بها ملابسنا ، وبيدي المظلة الواقية من المطر وقد أغلقتها بسبب شدة الهواء رغم الرذاذ الذي ظل يتساقط على رأسينا · وبدا لي أنها المرة الأولى التي أزور المدينة فيها وان لم يكن ذلك صحيحا ·

ـ هل تذكر تلك القصة القصيرة لأحمد هاشم الشريف التي تدور عن موظف ريفي صغير يأتي الى القاهرة للمرة الأولى وبيده حقيبة تجسد خشيته بل ذعره من فقدها كل مخاوفه من الضياع في المدينة الكبيرة ؟ ثم وأنا أضحك : احرص على الحقيبة التي في يدك !

فأجاب بجدية مدعاة :

ـ احذري من فقد المظلة !

انحرفنا يسارا فازدحم الشارع فجأة بالمارة والحوانيت الصغيرة والكبيرة ، ثم على بعد خطوات وجدنا فندقا • سألنا ، وكان الفندق هو بغيتنا ، به طابق كامل تؤجر حجراته بثمن مخفض للطلاب • صعدنا الى الطابق العشرين حيث مكتب الطلاب السياحي وأبرزت بطاقتي الجامعية « أجرة المبيت عشرون دولارا بدون افطار » دفعناها وأخذنا المفتاح واتجهنا الى الغرفة •

قلت وأنا أغلق باب الحجرة وأبتسم :

ـ ها قد وصلنا الى الفندق دون أن نفقد المظلة !

على الباب من الداخل علقت لائحة مطبوعة بخط صغير تحمل عددا من التعليمات :

١ ـ لا تترك باب الحجرة مفتوحا وأنت بها ، بل أغلقه بالترباس من الداخل •

٢ ـ حين تغادر حجرتك تأكد من أنك أغلقتها وأدرت المفتاح بالباب دورتين •

٣ ـ تأكد حين تعيد مفتاحك الى الاستقبال أن لا أحد يراقبك•

٤ ـ لا تفتح باب حجرتك لطارق ما لم يخبرك موظف الاستقبال تلفونيا بأن ضيفا في الطريق اليك •

٥ ـ سلّم كل ما تحرص عليه من مال أو مقتنيات ثمينة الى قسم الامانات بالفندق والادارة غير مسؤولة عما يترك منها في الحجرة •

٦ ـ اذا هددك في الطريق شخص وطلب منك مالك فاعطه له

بلا تردد حفاظا على حياتك ٠

النظرات وضحكنا ، ولكنني ، حين دخل الحمام ، أغلقت ترباس الباب وعندما غادرنا الحجرة بعد أن اغتسلنا وبدلنا ملابسنا أقفل هو الباب ثم أدار المفتاح فيه مرتين !

ركبنا المصعد الى الدور الارضي وسلمنا الى الأمانات جوازي السفر وأعدنا المفتاح الى الاستقبال ثم خرجنا لنأكل ونتسكع في شوارع المدينة ٠

تناولنا وجبة سريعة من الهامبورغر والبطاطس المقلية وشربنا كوبين من القهوة ثم خرجنا الى الشارع مرة أخرى ، ننوي زيارة مبنى الامباير ستيت الذي لم يكن يبعد عن الفندق سوى بضع دقائق سيرا ٠ قلت لمريد ونحن ننتظر الاشارة الخضراء لكي نعبر الطريق :

ـ لم أر هذا المبنى قبل ذلك ، رغم أنني زرت المدينة ثلاث مرات ٠ في زيارتي الأولى زرت كما يليق بمجنونة مثلي ثلاثة متاحف في يوم واحد ٠ وفي زيارتي الثانية توارت المدينة خلف صاحبتي اللبنانية وحكاياتها الطويلة الموجعة عن صديقها الذي خلفته في بيروت وتقلباته العاطفية التي لا تنتهي ٠ أما في المرة الثالثة فقد رأيت شريحة من نخبتها اليسارية القديمة ٠ جئت بصحبة صديقتنا الافرو ـ أمريكية العجوز وأقمت معها في بيت أحد أصدقائها وحضرت « حفلا عائليا » صغيرا على شرفها ٠ كان كل الحاضرين باستثنائي أبناء جيل واحد ، تجاوزوا الستين أو على مشارفها ، جمعتهم على ما فهمت فترة الاضطهاد المكارثي في مطلع الخمسينات ٠ قلت ونحن ندخل الى مبنى الامباير ستيت ونقف في الصف

الطويل لشراء تذاكر للصعود اليها : « ولكن تلك حكاية طويلة ، لا بد أن أحكي لك عنها بالتفصيل في وقت آخر ! » ٠

ركبنا المصعد الى حيث شرفة المشاهدة ٠ لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة عصرا ، ولكن الجو كان غائما ، فبدا كأنه الغسق ٠ خرجنا الى الشرفة فلفح وجوهنا عواء عاصف وبارد راح يصفر عبر شعرنا وملابسنا ٠ تحتنا على امتداد البصر كانت نيويورك تقبع في الضباب يخفي تفاصيلها ولا يخفي فتبدو بناياتها الشاهقة الكثيرة كالفطر متناثرة في مجموعات هنا وهناك ٠

ـ لا أرى تمثال الحرية !

قال مريد ٠ أجلت البصر في المكان ثم أخرجت من حقيبتي خريطة المدينة أبحث عن مكان التمثال ، ثم رفعت عيني وعدت أجول بهما في المدينة الممتدة أسفلنا ، قلت مشيرة بيدي الى اللاشيء :

ـ أعتقد أنه في هذا الاتجاه ٠

ـ انه غارق في الضباب على أي حال !

عدت أحدق في الخريطة بيدي ثم أشرت الى مجموعة من البنايات المرتفعة :

ـ في هذا الاتجاه ، وول ستريت ، شارع التجارة والمال ٠

كانت سرعة الرياح تصطدم بنا كأنها سوف تفقدنا التوازن والهواء يصفر لاسعا في أذنينا ٠ قلت لمريد ونحن ندخل الى الشرفة الداخلية لكي نحتمي بدفء مكان مغلق :

ـ لا تبدو ناطحات السحاب من هذا العلو الشاهق مخيفة

كما تبدو لمن يقف بالقرب من مداخلها • في بوسطون مجموعة من ناطحات السحاب الحديثة جدا بدت لي وأنا أنظر اليها عبر الشارع ، انها هياكل شاهقة منتصبة لا سمك لها ، وانها قد تسقط في أي وقت ، وكلما رفعت عيني الى واجهاتها التي تخلو من الشرفات ولا يظهر زجاج نوافذها الاسود أحدا من ساكنيها ، شعرت بالخوف ، الخوف الشديد •

ـ ربما كان علينا أن نأتي مرة أخرى في يوم مشمس لعلنا نشاهد شيئا غير الاسمنت والضباب ، هل تشربين كوبا من القهوة ؟

دفعنا الباب الزجاجي المفضي الى الشارع المزدحم بالمارة ، تشابكت أيدينا ونحن نردد أبياتا من قصيدة « الارض الخراب » للشاعر الامريكي اليوت يقول مريد بيتا فأعقبه بآخر ثم أكرر من القصيدة بيتا وقد عدلت فيه كلمة أو كلمتين :

— Unreal city under the brown fog of a winter dawn.

— I had not thought death had undone so many.

— Unreal city under the grey fog of a summer dusk.

— Vienna, Paris, London, unreal !

أحاطني مريد بذراعيه وسرنا في الشوارع نأتنس بالزحام وضوء المصابيح ونحدق في المدينة الكبيرة التي نعرفهـا ولا نعرفها •

ارتدينا ملابسنا ونزلنا لنبحث عن مقهى نتناول افطارنا فيه • خرجنا الى الطريق الذي بدا بالمقارنة بالليلة السابقة خاليا من المارة • نظرت الى ساعتي ، لم تكن تجاوزت الثامنة صباحا ، وكنا يوم سبت • كان الطقس غائما وان لم يكن في برودة الأمس • دخلنا الى مقهى صغير بشارع جانبي وجلسنا على كرسيين مرتفعين بجوار العارضة الخشبية التي يُقدَّم الأكل عليها والتي يقف وراءها النادل • طلب مريد بيضا مقليا وقهوة وطلبت مع القهوة شريحة من الخبز بالجبن وقطعة من الحلوى • لم يكن بالمقهى من رواد الا نحن ورجل عجوز جالس على مائدة جانبية يتناول افطاره في صمت ، ثم دخلت سيدة متقدمة في السن تلبس معطفا وجلست على احدى الموائد الجانبية قريبا من مائدة الرجل ، أخذت تنقل نظراتها بيننا وبين النادل تنتظر أن يأتيها بالافطار •

ـ المسنون يشعرون أكثر بالبرودة • وهذه السيدة المسكينة تلبس معطفا في شهر يونية !

ـ غريب خروجها لتناول الافطار فهي مقهى في الصباح المبكر هكذا !

كانت المرأة قد بدأت تتبادل الحديث مع الرجل عبر المائدة الخالية بينهما •

ـ ربما تعيش وحدها وتشعر بالوحشة •

وضع النادل الافطار الذي طلبناه أمامنا فأخذنا نأكل في صمت • وأنا أفكر في الرجل العجوز بقصة همنغواي الذي يذهب كل ليلة الى المقهى ويبقى جالسا به حتى يخلو من الرواد وتحين ساعة اغلاقه • وأستعيد حوار الناديلن عن شخص أقدم على الانتحار « لماذا ؟ » ، « لا شيء ! » ،

« لا شيء ؟ » ، « لا شيء ! » تتردد العبارة في القصة كناقوس حزين يؤكد هبوط ذلك اللاشيء الموحش على دنيا الرجل فيتشبث بالمقهى « المكان النظيف جيد الاضاءة » يدرأ فيه شيئا من الخوف في نفسه · رفعت عيني عن كوب القهوة الذي أحتسيه · كان الرجل قد غادر تاركا وراءه على المائدة مخلفات افطاره ، والمرأة جالسة في ترهل مثقل تحدق في الفراغ وقد كشف معطفها المفتوح عن ما تحته من ملابس ، لم تكن قد خلعت قميص نومها بل أحاطته من عند وسطها بحزام رفيع لرفعه قليلا كي لا يبين ذيله من تحت المعطف ·

ـ هل تذهب الى تمثال الحرية ··· أم نذهب الى هارلم ؟

دفعنا ثمن افطارنا وغادرنا المقهى الى الشارع ولم نقرر بعد الى أين سنذهب · عدنا أدراجنا في اتجاه الفندق ثم تجاوزناه الى تقاطع الشارع الرابع والثلاثين بالشارع الخامس وأنا ألقي على مريد قصيدة لانغستون هيوز عن هارلم :

ما الذي يحدث لحلم أجّلوه ؟

هل يجف
كزبيبة في الشمس ،
أم تخرج به القروح فيتقيح ؟

هل تفوح رائحته كاللحم العطن ؟
أم يفرز قشرة

كمشروب سكري مركّز ؟

ربما يتدلى
كحمل ثقيل

أم أنه ينفجر ؟

وننحرف الى الشارع الخامس نسير باتجاه الحوانيت التجارية الكبيرة الانيقة التي تعطي الشارع والمدينة شيئا من هويتهما • وهارلم القصيدة مكثفة ومجردة تستحضر هارلم الوقائع والتفاصيل التي عايشتها عبر دراستي • قطار ينبعث دخانه ويسرع الى المدينة التي تطل على الأطلسي في الشمال بامرأة ترفع يدها عاليا بشعلة للحرية • هم يريدون الحرية ، نازحون من مدن الجنوب اليها ، سود وفقراء يدخلون المدينة وبأيديهم صغارهم وحقائب السفر (مقفلة على ملابسهم وبعض تذكارات الماضي وحلم) • ولكن يورك الجديدة لا تحب اختلاط الألوان ـ أليست ابنة أوروبا وصورتها في المرآة ـ نيويورك تختار بياضها العرقي وتترك للسود هارلم، فتصبح عاصمة لفقرائهم ومهنييهم وفنانيهم وجنودهم العائدين من الحرب العالمية الأولى بأفكار عن تحرر الشعوب • والعشرينات شاهدة ، تكتظ الشوارع بالأهالي السود المهللين لمسيرات ماركوس غارفي يتقدمها بلباسه المميز وقبعته المزركشة مناديا بالعودة الى افريقيا وبالقومية السوداء • وصحف ومجلات تتحدث عن الحقوق والتحرر الوطني ، وقصائد تتغنى بالأسود الجميل • حانات كثيرة وعزف بيانو ناعم ينساب وغضبة ساكسافون وصوت واعظ متمرد • وخطباء يقفون على نواصي الشوارع يحدثون الناس عن الاشتراكية ومبادىء الصراع والثورة •

وتمر السنوات على هارلم فتطبعها بهوية الفقراء وعنصرهم العرقي • يصبح الغيتو الكبير عاصمة للمقهورين المعبئين بكراهية غريزية للشرطة والاثرياء وبحاجة الى التحطيم ، تحطيم أنفسهم وبعضهم البعض مرارة وغلا أو تحطيم قاهريهم في انفجارات جماعية في وجه السلطة البيضاء ممثلة في ممتلكاتها وقوة قمعها البوليسية • « رضوى ، هل ترين ذلك الموكب

هناك ، تعالي تعالي ! » جرني مريد من يدي لكي نعبر الشارع في اتجاه موكب من الشباب حليقي الرؤوس يلبسون سراويل بيضاء ويغطون جزءا من صدرهم كالمحرمين من حجاج المسلمين بقطعة قماشية رقيقة لونها برتقالي فاتح ، بعضهم كان يحمل طبولا يدق عليها ٠

ـ هؤلاء اذن هم أتباع كريشنا ؟

ـ ويدعون للحب والسلام ٠

ـ يا سلام !

ـ ألا ترى كيف يبدو هؤلاء الشباب روحانيين ومتجردين عن هذه الدنيا وصراعاتها !

ـ كنا نتحدث عن هارلم ، أراهنك أنهم لا يستطيعون الاقتراب منها ٠ ان لم يصبهم شيء ، فعلى الأقل سينوبهم السخرية !

قلت وأنا أضحك :

ـ يا أيها الشاعر عليك بالتسامي ، أليست لديك أجنحة ؟!

لم نكن بعيدين عن متحف المتروبوليتان فعرضت على مريد ، رغم علمي بعدم حماسه لزيارة المتاحف ، أن نذهب ٠ قلت له مشجعة ان فيه مجموعة مصرية كبيرة ومجموعة يونانية ومجموعات أخرى كثيرة نادرة ٠

ـ لقد زرته قبل ذلك ، ما رأيك هل تذهب ؟

قال مريد :

ـ ما رأيك أنت أن نقضي النهار في الشوارع ؟ بالله

عليك أيهما أفضل : أن تري مئات الصور والتماثيل خارج سياقها في ضوء النيون الباهت وتتنقلي من قاعة الى قاعة ملاحقة برائحة الطلاء العالقة بالأرضية الخشبية اللامعة ، أم نتعرف على المدينة من خلال التسكع في شوارعها ؟

قضينا باقي النهار في الشارع الخامس نحدق في واجهات المحلات ووجوه الناس ، نعلق على أسعار السلع وهيئة المارة ، نسخر ونضحك ، ونتفق ونختلف ، نثرثر ثم نصمت ، ثم نعود للثرثرة ، ندخل مكتبة للسؤال عن كتاب ونخرج وقد اشترينا سواه ، نقطع الشوارع في اتجاه ميدان واشنطون وجرينتش فيلاج حتى كلت أقدامنا من طول ما مشينا وقرصنا الجوع .

ـ مريد ، ألم تمل الهامبورغور ؟

ـ حين أجوع يصبح المهم أن آكل !

ـ حين تطول بك الاقامة في الولايات المتحدة ، فمن المؤكد أنك سوف تكره الهامبورغر . في الاسبوع الاول من وصولي لم تكن مطاعم الجامعة قد فتحت فكنت أتناول الغداء والعشاء يوميا في مقهى « البلوورل » في الجامعة ، هامبورغر سادة ، هامبورغر بالجبن ، هامبورغر بالبيض ، ملك البورغور !

ـ حتى أصبح الهامبورغر يسري في دمك !

ـ وكدت أخشى التسمم !

ـ هذا محل بيتزا ، أنت تحبينها .

دفعنا الباب ودخلنا ، فلفحتنا حرارة المكان . كان المحل صغيرا به عارضة خشبية بحذاء الحائط وعدة كراسي خشبية عالية بلا مسند لجلوس الرواد . وفي مواجهتها عارضة أخرى

يقف خلفها رجل ربع ، قمحي اللون أسود العينين والشعر ، له شارب كثيف ، التصق قميصه بصدره المبلل بالعرق • كان الشاب يعمل في سرعة وآلية ، يرق العجين ويغطيه باللحم المفروم أو الفطر وشرائح من الطماطم والجبن ثم يدخله الى الفرن الذي وراءه • همست لمريد ونحن بانتظار دورنا :

ـ هذا الشاب عربي أو ايراني •

ـ كيف عرفت ؟

ـ شكلـه !

ـ قد يكون ايطاليا •

ـ لا ، بصدره سلسلة ذهبية بها آية الكرسي •

ـ ربما كان تركيا !

سألت الشاب بعد أن طلبت منه قطعتين من البيتزا :

ـ هل أنت عربي ؟

رفع عينيه اليّ ومشروع ابتسامة على شفتيه :

ـ نعم أنا فلسطيني ، من القدس ، وأنت ؟

ـ أنا مصرية ، وهذا زوجي فلسطيني •

ـ أهلين ، أهلين !

قالها الشاب وقد توقفت يداه عن العمل وتحول المشروع الى ابتسامة عريضة أكسبت وجهه المستدير المتورد بفعل وهج الفرن حماسا طفليا وطيبة •

ـ هل تدرسان هنا ؟ انني أعمل هنا منذ عـدة شهور • كنت هنا في تشرين الماضي حين أتى أبو عمار وتحدث فـي الأمم المتحدة باسم فلسطين ، كان ذلك عيدا ، ولقد بكيت !

وبدأ الشاب يصنع البيتزا التي طلبناها منه · لم يكن بالمحل من عاملين سواه وشخص آخر يجلس أمام حاسبة النقود ، وكان عدد من الرواد يقفون في الصف وراءنا في انتظار دورهم · ولم يكن بامكان الشاب أن يتحدث معنا أكثر فراح يعبر عن احتفائه من خلال البيتزا التي يصنعها لنا ، ورحت أتابعه وهو يقتطع كرتين كبيرتين من العجين ويفردهما واحدة بعد الاخرى ويغطيهما بكمية تفوق المعتاد من اللحم المفروم والطماطم والجبن · نظرت الى مريد ، كانت عيناه على يدي الشاب وهما تصنعان الفطائر ، وبقي صامتا ونحن نأكل البيتزا ، وحين انتهينا قال لنا الشاب بحماس :

ـ عودا ثانية !

شكرته ورفع له مريد يده محييا وقال :

ـ دير بالك عحالك يا خوي ، دير بالك عحالك !

حين وصلنا الى ميدان واشنطون ، كنا قد قطعنا مسافة أخرى كبيرة سيرا ، فجلسنا على أحد المقاعد بجوار مجموعة من الشباب هبيي الهيئة يعزف أحدهم على الغيتار ويرافقه آخر على صفارة · سكنا الى جلستنا الهادئة ، ندخن ونستمع الى عزف الشباب ، ونتابع بعيوننا أسراب الحمام التي تتجمع في بقعة من العشب ثم تطير فجأة كلما تجمعت تاركة وراءها واحدة تسير ببطء وتحرك رقبتها تلك الحركة المميزة لطير الحمام ·

ـ ومن يأتي لنا بكوب قهوة ؟

غادرنا أماكننا وسرنا باتجاه الشارع · كان بالحديقة ـ الميدان مساحات ممتدة من العشب الاخضر يحط عليه الحمام

ثم يطير فتتبعه عيون الرجال والنساء المسنين المتناثرين على الأرائك الخشبية • وعلى أرائك وحدهم جلس بعض السكارى، مالوا برؤوسهم المتغضنة القديمة على صدورهم مخلدين لسكون كأنه النوم • واحد منهم يحدق في اللاشيء أمامه وقد استغرق في حديث مع الهواء ونفسه ومن يقترب من المارة منه ،وبجواره كيس من الورق البني خبأ فيه علبة البيرة أو زجاجة الخمر التي راح يقطع حديثه للشرب منها • وهنا وهناك تجمع شباب هيبيو الهيئة يعزفون أو يدخنون أو يتبادلون النكات • لمحنا جمهرة من الناس بينهم أطفال كثيرون ، اقتربنا ، كان الاطفال يضحكون والكبار أيضا • زججنا بأنفسنا بينهم حتى نتمكن من المشاهدة • كان الناس قد أفسحوا المكان لفتى نحيل ، أشقر ، حليق الشعر ، يلبس قميصا وبنطالا وحذاء أسود ، يقوم بعرض تمثيلي صامت • يحاول فتح نافذة زجاجية يتقوس ظهره قليلا ، يهبط كتفاه ، تحتبس أنفاسه ، ويمتد ذراعاه ، وتدفع يداه المفتوحتان كمروحتين بالزجاج الوهم الى أعلى • ويزداد تقوس ظهره ، وتتقلص عضلات وجهه وهو يرفع بكل طاقته الزجاج اللاشيء • يدفع ، يدفع ، ثم يقفز للخلف فجأة متحاشيا سقوط الزجاج على أصابع يديه النحيلتين • يصفق له الناس فينحني لهم بابتسامة ثم يبدأ في مشهد جديد •

وعلى بعد خطوات من عرض التمثيل الصامت ، عند مدخل الحديقة كان شاب أسمر من جزر الهند الغربية على الأرجح يقف في لباس مزركش زاهي الألوان أمام برميلين كبيرين ويشرح للمارة بعض تفاصيل فنه •

ـ قالوا هذه البراميل القديمة للقمامة ، فقلنا بل لمتعة الناس • انظروا يا اخوتي ، هذان البرميلان من الصفيح هما

آلة موسيقية بسيطة ، هكذا تبدو ، ولكن بها امكانيات عظيمة ... اسمعوا هكذا !

وأخذ الشاب يضرب بعصيه على أجزاء مختلفة من البرميلين محدثا صوتا مختلفا في كل مرة .

ـ انني فقط أريكم كيف . ولكني الآن سأسمعكم الموسيقى الحقيقية .

وبدأ الشاب ذو الوجه الاسود المستدير والعينين اللامعتين يضرب بسرعة واقتدار على طبلتيه محدثا أصواتا تتناغم وتتنافر داخل نسق لحني جميل ، وراح جسده يميل يمنة ويسرة يجاوب الصوت وكأنه هو نفسه ثالث الطبلتين يشاركهما وحدة عضوية لا تحل ، وكأن وجهه الاسود المتصبب عرقا يفيض قوة وعذوبة .

ـ والقهوة ؟

ـ الافضل أن نركب الأتوبيس الى الفندق ونتناول قهوتنا في مكان قريب من هنا .

كانت الشمس قد مالت للغروب والغسق وشيك ، وكنا نريد أن نأكل شيئا ونتناول القهوة ونعود الى حجرتنا بالفندق قبل أن يهبط الليل علينا ، غريبين في المدينة التي نعرفها ولا نعرفها .

ـ ما الذي يحدث هذه الليلة ؟

تساءلت بصوت مسموع معلقة على الصفير الحاد المتصل لسيارات الشرطة التي بدا وكأنها خرجت بالمئات مرة واحدة الى وسط المدينة تقطعها جيئة وذهابا .

ـ ربما كان ذلك يحدث كل ليلة ، قال مريد ، ولم نلحظه بالأمس لأننا نمنا مبكرا ·

لم يكن بالحجرة شرفة نطل منها على الطريق بل طاقة مربعة بأعلى الجدار نرى عبر فتحتها بعض أضواء ناطحات السحاب · لم يكن بامكاننا رؤية الكشافات الفوسفورية الزرقاء لسيارات النجدة وهي تواكب في حركتها الدائرية النابضة الصفير المتقطع ·

جلسنا أمام التلفزيون ، مريد متكئا بظهره على السرير وأنا على مقعد مقابل ، ننظر الى ما يدور على الشاشة ولا نتابعه · نبدأ حوارا في موضوع ثم لا نوفيه · وبدا ان انشغالنا بذلك الذي يدور من حولنا أمر لا مهرب منه · باب الحجرة مغلق بالترباس ، والمفتاح تعلوه لافتة من التعليمات الامنية ، كنا نعي ذلك ونعي أننا في غرفة بالدور العشرين بفندق في قلب منهاتن · ننصت لأصوات سيارات النجدة كأننا مسجونان راحا يصيخان السمع ، أداتهما الوحيدة لعقد صلة بالعالم الخارجي حولهما ·

ـ خمّن ما الذي حدث الآن ؟

ـ عثروا على شخص قتيل !

ـ أو معركة بالزجاجات وقعت في حانة !

ـ أو سيارة سُرقت !

ـ هذا ما يحدث في كل مكان !

ـ خمن مرة أخرى ؟

ـ سيدة ثرية اكتشفت سرقة عقدها الماسي !

ـ سرقة متحف !

ـ أو بنك !

ـ أو بيت !

ـ هذا يحدث في كل مكان !

استهوتنا اللعبة ٠

ـ شباب سود اقتحموا متجرا وحطموا كل ما فيه !

ـ امرأة بورتوريكية فقيرة قتلت نفسها !

ـ أبلغ الجيران عن رائحة كريهة تنبعث من مسكن جارهم العجوز الذي لم يره أحد منذ أيام !

ـ شرطي أطلق الرصاص على شاب أسود !

ـ فتاة اعتدي عليها جنسيا ثم ضربت حتى الموت !

ـ عشرة شباب سكروا ثم قاموا بانتحار جماعي !

ـ هذه لعبة كئيبة ، ساقوم لأتحمم !

ـ هل نذهب الى تمثال الحرية ؟

ـ سنذهب الى « الغرنيكا »

دفعنا الباب الزجاجي للفندق المفضي الى الطريق وسرنا باتجاه تقاطع الشارع الرابع والثلاثين بالشارع الخامس ، ثم انحرفنا يسارا قاصدين متحف الفن الحديث٠« بدأت تمطر ! » تطلعت الى أعلى ، السماء ملبدة بغيوم رصاصية ٠ فتح مريد المظلة ، وأمسكها بيده اليسرى ، وسرت أنا بجواره متعلقة بكلتا يدي بذراعه اليمنى ، أثرثر بلا انقطاع عن زياراتي السابقة للمتحف ٠

عند باب المتحف نفضنا المظلة من الماء العالق بها ثم طويناها ودخلنا ٠ ملت على مريد وقلت بصوت هامس : « قبل أن

نصعد الى أعلى لكي ترى « الغرنيكا » ، أريد أن أطلعك على سر صغير ! » دلفنا من باب يسارنا الى قاعة للعرض · كانت اللوحة الصغيرة التي بحجم كراس مدرسي في مكانها على الجدار بين عدد من اللوحات الصغيرة الأخرى ·

ـ أردتك أن ترى هذه اللوحة ·

وقفنا معا نتأمل لوحة « المينوتور » لبيكاسو التي رسمها كغلاف لمجلة فنية عام ١٩٣٣ · عاودني الشعور ، كما في المرتين السابقتين ، بأن تلك النظرة في عيني الثور الاسطوري تهمس الي بكلام كثير عن الوداعة والبراءة وشيء من حزن أو انكسار وربما أشياء أخرى عن مخلوقات ومساحات من الاحساس أفلتت في الهمس من أذني المصغية ·

ـ هذا المينوتور المسكين في الاسطورة ، هو الذي يحمل الارض على رأسه !

ـ انني أتعاطف معه كأنه أنا !

ـ لماذا أسميت اللوحة سرا ؟

ـ لا أدري !

وصعدنا لمشاهدة « الغرنيكا » · دخلنا من باب القاعة ، كانت في مكانها تغطي الجدار المواجه بالكامل ، لوحة بألوان الصور الفوتوغرافية في الصحف اليومية ، أسود ورمادي وأبيض ، في أقصى اليمين شخص يرفع يديه ورأسه الى أعلى مستنجدا ببطاقة مربعة من الضوء ولا يصل · وامرأة تطل من نافذة بأعلى يمين اللوحة برأس مندفع ويد تقبض بعزم نبية على مصباح صغير مضاء بفتيل والمصباح يلامس آخر أكبر يمزج بين أشكال المصباح الكهربي والشمس والعين · ومن الزاوية اليمنى بأسفل اللوحة تركض امرأة باتجاه الحدث

بمركزها ، مذعورة مشرئبة العنق تتطلع ، رعبها صار تشنجا في أصابع اليدين والقدمين وحلمتي الثديين • ومركز اللوحة حصان يصهل ساعة يهوي تنكسر قوادمه ، والفارس القتيل مقطع الأوصال تحتــه • رأس ويــدان • في الرأس عينــان مفتوحتان وفم فاغر يحتج ويصرخ ، أم أنه يسأل لماذا ؟ ويــد مفتوحة يجاوب تصلبها المتشنج أيادي المشرئب للنافذة والمرأة الراكضة وثكلى تحمل ابنها القتيل • ويد الفارس الاخــرى تقبض على خنجره المكسور وزهرة • وبأعلى يسار اللوحــة طائر يشرئب للضوء ، هل هو ذبيح ؟ ورأس ذلك الثور المهيمن شاهدا وساكنا وباقيا كتراب الوطن أو كالتجدد في الوجود •

ـ ربما سميت تلك اللوحة الصغيرة سرا لأنني كنت أفكر فيها في ضوء « الغرنيكا » •

ـ « المنيوتور »تسر لك ، أما هذه فهي البيان بعينه ، انها بيان المذبحة !

ثم رحنا نشاهد مجموعة السكتشات التي بدأها بيكاسو بعد أيام من معرفته بخبر قصف القرية ●

● في ٢٧ ابريل ١٩٣٧ قصفت‌الطائرات النازية اسهاما في مساعدة قوات فرانكو الفاشية قرية غرنيكا باقليم الباسك باسبانيا • استمر القصف ثلاث ساعات وبلغ عدد الضحايا ٦٥٤ قتيلا و ٨٨٤ جريحا • في مايو رسم بيكاسو ٦ سكيتشات‌حول الموضــوع ثم تابع في الايــام التالية رسم سكيتشات اخرى • في١٠ مايو بدأ في رسم اللوحة ، وفي يونيه كان قد أنجزها • نقلت اللوحة من باريس الى نيويورك حيــث بقيت معروضة في متحف الفن الحديث حتى نقلت في اكتوبر ١٩٨١ الى متحف البرادو بمدريد •

ـ هذه المرأة العاصفة المطلة بمصباحها على المشهد كانت بذهن بيكاسو منذ تصوره الاول عن اللوحة ، انها موجودة منذ السكيتش الاول ٠

ـ وكذلك الحصان ٠

ـ « وان من البيان لسحرا » ٠

ـ وغضب الفنان وحده لا يأتي بذلك البيان السحر ! لا بد أن تتوفر لديه قدرة فذة علىصنع تكوين دال ومقتصد ومتناسق الى حد الصرامة الهندسية !

كان المطر ينهمر غزيرا على السقف الزجاجي للقاعة ، محدثا صوتا راح يعلو ويتصاعد ، فارضا نفسه على المكان وعلينا ٠ قلت لمريد ان في المتحف صورا أخرى لبيكاسو ومجموعة جميلة لموديلياني،ولوحة يجبألا تفوته لسيكييروس، وأخرى اسمها « الزاباتستاس » لفنان من أمريكا اللاتينية نسيت اسمه ٠ ولكنني كنت أتوقع ، كما حدث يوم شاهدت « الغرنيكا » للمرة الأولى ، أنه يفضل ألا يرى شيئا آخر على الأقل بعدها مباشرة ٠

ـ ما رأيك في تناول كوب من القهوة ؟

نزلنا الدرج الى الدور الاول بحثا عن المقهى المشار اليه في دليل المتحف ٠ مررنا بباب زجاجي كبير يفضي الى حديقة بها بعض التماثيل ، كان المطر ينهمر بغزارة ، ولم يكن في الحديقة أحد ٠ وجدنا سهما يشير الى باب المقهى ٠ دفعنا الباب الزجاجي ودخلنا ٠ كان المقهى دافئا وصغيرا وأنيقا ٠ جلسنا نأكل في صمت ٠

ـ بم تفكر ؟

ـ في مذابحنا التي لم يرسمها أحد بعد !

كنت أرشف قهوتي وأدخن وأنا جالسة في مواجهة مريد ، أفكر في أن « الغرنيكا » هي أشهر لوحة سياسية في هذا القرن ، وأتساءل عن الذي يجعل الفن فنا ، وعن الذي يجعله هكذا مختلفا ومتميزا عن كل شيء سواه • ثم أحدق بخيبة أمل الى الكوب الذي أصبح فارغا •

ـ هل تشرب قهوة أخرى ؟

وأحمل كوبين آخرين من القهوة يتصاعد البخار منهما نرشفهما في هدوء ثم نمضي لاستكمال جولتنا ، نمر بالباب الزجاجي للحديقة ، توقف المطر •

ـ هل نخرج ؟

خضرة الحديقة مغللة بشيء من بخار • العشب مبلل وأوراق الشجر مثقلة بحبات المطر البللورية • نخطو في الحديقة كأننا جديدان على أرض جديدة ، تماثيل من البرونز تلتمع بالبلل • تمثال كبير لبالزاك من صنع رودان وعنزة من الحديد المطروق لبيكاسو ، وحدة نحتية اسمها الأسرة لهنري مور ، امرأة عارية مضطجعة فوق مجرى مائي صغير تحيط بها خضرة النباتات • طقس غائم كأنه الغسق والتماثيل تفصح عن حضورها في الصمت المطبق الذي يلف الحديقة ، وشيء من خوف يتسرب الى نفسي • هل هذه التماثيل جماد أم أنها كتلك التي شاهدها الأمير موسى بمدينة النحاس في ألف ليلة حياة تجمدت لوقت عابر ؟

هذا المكان المسكون بالتماثيل والاخضر والمطر هل يخيفني أم أن شيئا فيه مكثف وفذ كلحظة الاخصاب تغلب روحي وتبعث الدمع في عيني ؟ « وما الذي يجعل الفن فنا يا مريد ؟ »

ولا أنتظر اجابة وأمسك بيده ونذير ظهرنا للحديقة دالفين من الباب الزجاجي الى داخل المبنى ٠

وبعد ساعات من المشاهدة في قاعات المتحف نغادر حاملين مظلتنا ، سائرين في الشارع الذي لم يعد مبللا ، ويبدو ونحن نرى الطريق المزدحمة بالرائحين والغادين والسيارات الخاصة والأتوبيسات أننا قد وصلنا لتونا من سفر وأن على عيوننا أن تعاود التآلف مع ذلك الضوء المختلف ٠ ثم نعود نعلّق ساخرين على جناح الفن الحديث جدا ، آخر ما شاهدناه بالمتحف ٠ نشارة خشب واطار سيارة قديم في زاوية ، هذا تكوين فني ، قاعدة خشبية لمرحاض تحيط بها شباك ، هذا تكوين آخر ٠ ويضحك مريد قائلا : « يبدو أننا قد أصبحنا من المحافظين ! » ثم يسارع الى فتح المظلة اتقاء للمطر الذي عاد ينهمر فوق رأسينا ٠

دفعنا حساب الفندق وحملنا حقيبتينا الصغيرتين والمظلة وخرجنا الى الشارع ٠ في الوقت متسع ، سنذهب لمشاهدة العرض البورتوريكي ، وبعدها نتجه الى محطة الأتوبيسات المركزية نتناول الغداء في أحد مقاهيها ، ثم نركب الأتوبيس الذي يغادر الى أمهرست في تمام الثالثة ٠ سرنا باتجاه تقاطع الشارع الرابع والثلاثين والشارع الخامس ثم انعطفنا يسارا قاصدين المنطقة التي سيجري بها العرض ٠

أتتنا ، قبل أن نصل ، دقات الطبول ، وكلما اقتربنا من المكان علا صوت القرع مصحوبا بذلك الصخب المميز لتجمهر الناس في عيد شعبي ٠ ثم بدأنا نشق طريقنا وسط آلاف

الأهالي المحتشدين على جانبي الطريق ، نحاول أن نجد موطيء قدم يمكننا من المشاهدة . كان من الواضح أن المرور العادي قد حوّل لأجل موكب السيارات والعربات المشاركة في العرض والتي راحت تمر من أمامنا مغطاة بالحرير اللامع ذي الألوان البراقة ، والأعلام المرفرفة ، واللافتات الكبيرة المزينة التي تحمل أسماء الهيئات الشعبية البورتوريكية . يعتلي العربات حسان سمراوات في أثواب تكشف عن العنق والذراعين وتضيق عند الخصر وتنطلق فضفاضة تغطي الساقين ، أو في أردية تترك الذراعين والفخذين عارية كملابس البحر تجمّلها أوشحة زاهية اللون . ثم تمر وحدات من الاطفال والشباب والفتيات في صفوف متراصة منتظمة تتلوها وحدات من العاملين في شتى مناحي النشاط الذي يسهم فيه البورتوريكيون . ويدهشنا طول الموكب وضخامته، ويدهشنا أكثر حشد الأهالي على جانبي الطريق . آلاف من الرجال والنساء والاطفال ، عشرات الآلاف ، غابت دكنة الاسفلت تحت نسيجهم البشري الزاهي ، الوجوه الحنطية ، ألوان الملابس المتعددة ، البالونات الحمراء والزرقاء والخضراء والبنفسجية ، وآلاف الأعلام الصغيرة ذات المثلث الازرق والخطوط البيضاء والحمراء مصنوعة من الورق ومثبتة بأعواد خشبية دقيقة في أيدي الكبار والصغار . وبائعو المثلجات والنقانق نصبوا موائدهم الخشبية في الخلفيات ، والشباب الوطنيون ألصقوا على قمصانهم وبناطيلهم شعارات تقول : « أنا فخور لأنني بورتوريكي » أو « قبّلني فأنا بورتوريكي » ، وفتيات سمراوات ممتلئات الأرداف علقن أقراطا معدنية تحمل رسم العلم . كانت بورتوريكو التي تقطن نيويورك قد خرجت عن بكرة أبيها الى

الشارع لتشاهد في المرآة نفسها فتتبدد بعض مخاوفها أمام وجودها الجماعي المميز ·

يقترب منا شاب نحيل ويعرض علينا احدى الجرائد الراديكالية لنشتريها فأقول له مبتسمة : « اننا لا نقرأ الاسبانية ! » فيتحول عنا في غضب ظنا أننا نسخر منه ، فهو لا يتوقع الا أن نكون بورتوريكيين · أصيح عليه : كومبا نيرو ·· اننا عرب ! » ولا أعرف ان كان قد سمعني ، ويضيع وسط الزحام ·

ـ الجزيرة الفريسة انقض عليها النسر الامريكي عام ١٨٩٨ وها هو ما زال ينهش ! لم أكن أتصور أن بنيويورك هذا العدد الضخم من البورتوريكيين !

ـ ثلث سكان الجزيرة مهاجرون الى الولايات المتحدة ويعملون أساسا في نيويورك ، وشيكاغو ، ويواجهون شتى المشاكل المرتبطة بالفقر والبطالة وعدم معرفة اللغة وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي والثقافي ، انهم يعيشون في قاع السلم الطبقي والعنصري ، وهذا يزيد طبعا من حسهم الوطني كبورتوريكيين · ومع ذلك ، قال لي صديق منذ فترة ، انه لو أجري استفتاء الآن للاختيار بين استقلال الجزيرة عن الولايات المتحدة وانضمامها النهائي لها كولاية جديدة من ولاياتها فان هناك احتمالا كبيرا أن تأتي نتيجة الاستفتاء في صف الانضمام ··· هل تصدق ! واضح أن الولايات المتحدة بسياساتها الاقتصادية في الجزيرة قد جعلت البورتوريكيين يشعرون أن حرمانهم من وضعهم كرعايا للولايات المتحدة ، وهو الوضع الذي يسمح لهم بالهجرة اليها بحثا عن عمل ،

سوف يضعهم في مأزق . لقد عرّتهم الى الحد الذي صار عليهم أن يفكروا مرتين ان لم يكن من الافضل لهم أن يحتموا بالمظلة الامبريالية . وتعمل المجموعات الراديكالية والمنظمات الحزبية على توعية الأهالي بخطورة موقف كهذا ، وبأن هذه المظلة الامبريالية ليست سوى جناحي النسر الذي ينهش !

ـ علينا الآن أن نتوجه الى المحطة لكي لا يفوتنا الاتوبيس.

قلت لمريد مداعبة :

ـ لا يصح أن تأتي الى نيويورك وتغادرها ولا تزور تمثال الحرية أو تشتري نموذجا مصغرا منه أو ترسل لاصدقائك بطاقة تحمل صورته !

ـ سوف نطلب من هذه الأسرة علما لبورتوريكو !

١٢

قال أستاذي مداعبا حين ذهبت اليه لأستمع الى رأيه في رسالتي :

ـ لماذا لم تكتبي الرسالة بذلك التمكن الذي ترجمت به قصيدة مريد « سعيد القروي » ؟

ـ اذن أعجبتك القصيدة ؟

ـ أعجبتني جدا ، انها ويتمانية !

ضحكت زوجته :

ـ لا أحد عنده يرقى الى مرتبة ويتمان !

ـ أفهم من ذلك أن الرسالة لم تعجبك ؟

ـ لم أقل ذلك ! وضحك ٠

كان الأستاذ يجلس كما اعتاد في الآونة الاخيرة على الأريكة الملاصقة للنافذة التي تغمر الحجرة بالضوء ، وبجواره مائدة صغيرة صفت عليها بعض أوراقه وكتبه ومشاية معدنية صار يستعين بها في الحركة منذ زلت قدمه قبل شهر وأصيب بكسر في أعلى الساق ٠ جلست بجواره لكي أستمع الى

ملحوظاته التفصيلية في البحث · وحين انتهينا قال مبتسما :

– باستطاعتنا الآن أن نحدد موعد الامتحان ، ما رأيك في ٣٠/٦ ؟ اذا كان الموعد مناسبا لك وللممتحنين الآخرين فسوف أعلم ادارة الجامعة بكتاب رسمي · ويا عزيزتي ستنفردين بالامتحان في هذه الشرفة الجميلة المطلة على الغابة هنا في هذا البيت !

لم تكن التعديلات المقترحة من قبل المشرف لتتطلب جهدا كبيرا ، ساعة أو ساعتين أقضيهما بين حين وآخر في المكتبة بحثا عن معلومة محددة ، أو في البيت أعيد صياغة فقرة تفتقد الدقة أو جملة مبهمة · ولكني كنت قد انتهيت من البحث وانفلت من دائرة جاذبيته التي استمرت طوال عملي فيه ، وعادت تساؤلاتي بخصوصه من ذلك النوع الذي يشغل نجارا يحمل صناعته الجديدة لكي يعرضها على الآخرين ، تساؤلات تختلف عن تلك التي شغلته وهو يعمل بين الأخشاب والمسامير وسطل الغراء وعدة النجارة ·

وكنا نسكن ذلك البيت الصغير نفسه الذي تحدث ألواح سلمه الخشبي صوتا في صعودنا ونزولنا ، والذي كان علينا أن نتجنب باستمرار من اصطدام رأسينا بسقفه المائل عند طرفي الحمام والمطبخ · كنا فرحين لوجودنا معا ، أنا ومريد ، ولممارستنا تلك التفاصيل الصغيرة التي تؤكد هذا الوجود المشترك · نذهب لشراء لوازمنا اليومية ، نحمل أكياس ملابسنا المتسخة الى المغسلة ، ننظف البيت ، نطهو الطعام ، نتسكع أمام واجهات المحال ، ندخل مقهى ، نجلس على العشب ، نتابع من النافذة العريضة لحجرة نومنا هطول الأمطار على الاسفلت وضوء السيارات ومصابيح الشارع ،

نخرج الى الطريق نتابع رائحة العشب المبتل بعد توقف المطر ، يأخذنا سحر عازف أسمر وهو ينفخ في نفيره النحاسي في اقتدار شامخ كأنه رسول جديد ، يأتينا مايكل بالطفلين ، أو يدعونا الى بيته ، يفاجيء ابن زوجته بأنه اصطاد له ثعبانا ، ويفاجيء صديقتي العجوز بحضوره القسم حافي القدمين ولا يلبس الا الشورت • ندعو أصدقاءنا الافرو ـ أمريكيين الى بيتنا ، ونذهب اليهم في بيوتهم وندخل في سياقهم كأننا منهم •

في انتظار الامتحان اتسمت حياتنا اليومية بتلك الاعتيادية الأليفة التي تؤكد بعض الأحداث المفاجئة أو المختلفة ، انها اعتيادية وأليفة •

ـ جاءنا طرد !

قال مريد وهو يدفع الباب ويدخل علبة كرتونية صغيرة عليها طوابع وأختام بريدية • وكطفلين صغيرين يستطيل عنقاهما المشرئبان استباقا للمفاجأة في حب استطلاع ونفاد صبر ، نفك الخيط ونفتح العلبة •

ـ مانجو ••• وزهرة !

أربعة أنواع مختلفة من ثمار المانجو وزهرة الغاردينيا أرسلتها لنا آنّا من بورتوريكو • في فيلم كوبي شاهدته قبل شهور برفقتها يسأل شاب فتاة « ما اسمك ؟ » تقول « لوسيا » فيقول « لا ، بل غاردينيا ! » وما الغاردينيا يا آنّا ؟ تصفها لي ، وها هي ترسل بواحدة ، زهرة بيضاء ، نفاذة الرائحة أحاطت عرقها بقطعة قماشية مبللة حتى تصل الينا قبل أن تذبل ، ولم تكن الزهرة قد ذبلت تماما •

وتحدثني راشنا صديقتي الهندية بالتلفون وتقترح أن

ترافقها هي وصديقها راجيندر في رحلة بالسيارة الى كندا لخمسة أيام • أتحمس للفكرة ويقلق مريد للأمر •

ـ والامتحان ؟

ـ انه يوم ٦/٣٠ سنعود قبل ذلك بأربعة أو خمسة أيام !

تحملنا سيارة راجندر الفولكس فاغن القديمة ذات صباح مشمس شمالا باتجاه مقاطعة أونتاريو بكندا • يجلس راجندر خلف عجلة القيادة ، أنيقا كعادته ، يلف رأسه بتلك العمامة الواجب لبسها على السيخ ويحيط معصمه بأسوارة من فضة ، وبجواره تجلس راشنا تنظر من حين لآخر في خريطة معها لتدله على الطريق ، وأنا ومريد في المقعد الخلفي • ينتصف النهار ونتوقف لنأكل بعض ما حملناه من ساندويتشات • تتعطل السيارة فندخل قرية في الطريق لاصلاحها • تغيب الشمس ولم نصل تورنتو بعد ، ثم يهبط الليل • ونتوقف على مشارف المدينة لنأكل مرة أخرى ولتتصل راشنا بصديقة لها دعتها للاقامة ببيتها • سنوصل راشنا أولا ثم نبحث لنا عن فندق ، ولكننا نضيع في المدينة الكبيرة ، نسأل ثم نعود نفقد طريقنا بين سكك جبلية تحت أمطار لا تنقطع • وأخيرا نصل وقد جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل • فتدعونا صاحبة البيت لقضاء الليلة عندها « تأخر الوقت بكم ، ونحن بعيدون عن مركز المدينة ، ستقضي راشنا الليلة معي في البيت ، وبالحديقة كوخ به مكان لثلاثتكم » • كوخ خشبي صغير تحت الامطار في الغابة ، مشهد من قصيدة ، غير أنني في المشهد منهكة ولا أستطيع النوم • هل هو اختلاف المكان أم خوف تسببه قرقعات الرعد وصوت انهمار المطر على سقف الكوخ الذي يبدو كأنه سوف ينهار فوق رؤوسنا ؟ ولكن

الغابة في الصبح ، بعد ليلة من الامطار ، تتألق كعاشقة قامت لتوها من فراش الحب • بهية هي الغابة بعد المطر ، مثقل أخضرها بالبلل ، تلتمع دكنة جذوع أشجارها العتيقة كأنها ليست عتيقة ويهمس طينها الرطب القديم بأشياء مبهمة عن خصب وبذور خليقة • نتجول في المكان في انتظار أن ينتهي صاحبنا الهندي من لف عمامته وترتيب شاربه المبروم من طرفيه الى أعلى قليلا حسب تقاليد السيخ ، ونشرب قهوتنا الصباحية شاكرين صاحبة البيت • ونؤمن مبيتنا لليالي الثلاث التالية في فندق •

نشاهد المدينة • نزور متحف فنونها ومركز العلوم بها وبرلمان الولاية ، نتسكع في شوارعها التجارية ، نندهش دهشة الريفيين أمام واجهات محلات الجنس الكثيرة ، نتوغل في الشوارع الخلفية حيث تغلب الأقليات العرقية من أصول هندية وصينية وافريقية ، نلتقي ببعض معارف راجندر من السيخ الذين خلعوا العمامة والاسوارة الفضية وحلقوا اللحية والشارب ليدخلوا في السياق وبقوا خارجه • ونختتم زيارتنا بقضاء ليلة في « محل أونتاريو » الذي يضم من الملاهي أنواعا شتى • وفي الصباح نغادر المدينة كسياح طيبين قضوا وقتا طيبا وظلت معرفتهم بالمكان سطحية وعابرة •

وفي طريق العودة نتوقف لمشاهدة شلالات نياغارا وقضاء بعض ساعات في المكان • نهبط الى باطن الارض في مصعد ، ندخل حجرة فسيحة ، نستبدل أحذيتنا فيها بأحذية من مطاط ، ونلبس معاطف واقية من البلل لها أغطية للرأس ، ثم ندلف الى أنفاق تقودنا الى شرفة نرى فيها اندفاع الشلالات من فوق رؤوسنا • يملأ الأنفاق هدير المياه المندفعة كما ضجيج

دوران المخارط والأفران والآلات في مصنــع هــائل · يصم الصوت آذاننا فنصرخ لكي نسمع بعضنا · يبلل رذاذ المـاء وجوهنا فنضحك كأطفال موزعين بين فرحة المغامرة والخوف·

نصعد لنسير بمحاذاة السور الحجري للنهر ، نشهد من عل الشلالات المندفعة · ويلتقط لي مريد صورة ، سوف أظهر فيها جالســة على السور ومن خلفــي الشلالات ، بملابسي الزرقاء وشعري المربوط خلف أذني بشريط أسود دقيــق ، سوف يظهر حتى حذائي البني الصغير الذي لا يلمس الارض· ولكن لا شيء مما يضطرم في المكان أو في نفسي سوف يظهر !

ثم نعود الى السيارة « الفولكس » القديمة التي ألفناها كما المسافر الوحيد حماره ، نولي وجهنا جنوبا · يهبط الظلام علينا في تلك العلبة الصغيرة التي تضم أربعتنا وتقطع بنــا الطريق · يتبادل مريد وراجندر القيــادة ، وأنــا وراشنــا الذكريات في المقعد الخلفي بصوت خافت كالهمس · تحكــي راشنا عن أبيها وأمهــا اللذين ماتــا ، وعن تقاليد ديانتهــا الزرادشتية ، وعن عمة لها لا تغفر لأحد أن يدخن سيجارة في وجودها لأن فعلته استهانة بالنار المقدسة ، وعن أخيها الذي رزق طفلا وسماه « رياض » : « أليس الاسم عربيا ؟ » · ونتوقف مرتين لاصلاح عطل في السيارة ، ومرة لتناول عشاء سريع · وتضحك السيدة البدينة العاملة بالمقهى وهي تسألنا : « هل أضع لكم بصلا في الهامبورغور ؟ » ثم تستطرد وقــد اختلطت نبرتها الضاحكة بشيء من شكوى : « أنا أحب البصل كثيرا وزوجي لا يحبه ، فلا آكله الا حين يسافر ! » ونودع المرأة ونعود الى مركوبتنا الالمانية التي تحملنا هذه المرة دون خذلان الى أمهرست فنصلها بعد انتصاف الليل بساعتين ·

* * *

فتحت التلفزيون وجلست على الارض مسندة ظهري الى الحائط المواجه أشاهد برنامج تحقيقات تلفزيونية • انتهت فقرة وبدأت أخرى تحت عنوان « احذروا من تجارة الاطفال ! » قال المذيع :

ـ هناك عائلات كثيرة حرمت من الاطفال وهي تستعيض عن ذلك بالتبني • ولدينا هنا حالة من هذا النوع ، وان كانت تتفرد بملابسات خاصة • فالآنسة « ام » من ولاية فرجينيا وجدت نفسها حبلى ولم تكن راغبة في الانجاب ولا في تحمل مسؤولية طفل ، خاصة وأنها ليست متزوجة ، ولقد جاءها عرض بتبني الطفل بعد ولادته من قبل أسرة ثرية من نيويورك تريد طفلا أبيض من صلب يهودي • ولما كانت تلك المواصفات تنطبق على الآنسة « ام » فقد تم الاتفاق من خلال محام على التالي :

أ ـ يقوم المتبني بتحمل كافة نفقات الآنسة « ام » طوال فترة الحمل والوضع •

ب ـ تقوم الأم بعد الولادة مباشرة بتسليم الوليد •

ج ـ وفي المقابل يدفع لها مبلغ محدد من المال يتفق عليه •

ـ يا مريد تعال •

انتقل المذيع لمقابلة المرأة في بيتها بولاية فرجينيا ، فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين على الأرجح • لا يبدو عليها ذكاء أو تميز خاص ، ولا تبدو غبية أيضا • سألها :

ـ لماذا لم تريدي الطفل ، لأنك لست متزوجة ؟

ـ ليس تماما • لم أكن مستعدة لتحمل مسؤولية طفل ، نمط حياتي لا يسمح بوجود طفل !

ـ وما الذي حدث ، أقصد حين وقعت هذا الاتفاق ؟

ـ أخذوني الى مكان في فلوريدا وجدت فيه فتيات في مثل وضعي ، حوامل ولا يردن أطفالا وقررن اعطاء أطفالهن للتبني .

ـ مقابل مبالغ محددة ؟

ـ نعم ومقابل دفع مصاريف الرعاية أثناء الحمل والوضع.

ـ ثم ماذا حدث ؟

جاء مريد وبيده صينية عليها كنكة القهوة وفنجانين . قلت له :

ـ اجلس بسرعة ، هذه المرأة باعت طفلها وهو لا يزال ببطنها !

ـ انتقلت الى نيويورك للولادة بأحد مستشفياتها . بعد الولادة بيوم كان علي أن أسلم الطفل بيدي حسب شروط العقد المكتوب .

ـ هل رأيت الطفل ؟

ـ لا ، لم يسمحوا لي بذلك . كان علي أن أسلمه بنفسي ولذلك فلقد غطوه وقمت بتسليمه للمتبني في وجود المحامي . والآن بعد عام ...

ـ لم تشعري بانشغال أو قلق أو اشتياق للطفل ؟

ـ ليس بشكل خاص ، فأنا لم أره ولم أرتبط به .

ـ نعم ، ما الذي حدث بعد عام ؟

ـ اتصل بي المحامي وقال ان الأسرة المتبنية قد اكتشفت

أن استجابات الطفل غير عادية وأنه قد يكون متخلفا وهم لا يريدونه . ولا أدري طبعا مدى صحة كلامهم لكن العقد لا ينص على أي مسألة من هذا النوع .

ـ هذا يعني انك لا زلت غير راغبة في الطفل ؟

ـ قلت لك انه لا مكان لطفل في حياتي . ثم انني لم أر هذا الطفل وقد لا يكون ابني ... ثم ان هناك عقدا ...

قال مريد وهو يقوم ليقف بجوار النافذة :

ـ الحلم الامريكي الفريد !

ولكني لم أقل شيئا . بقيت في مكاني محدقة في شاشة التلفزيون وقد توقفت عن متابعة الفقرات التالية للبرنامج ... كنت أفكر فيما حل بطيبة في الأسطورة اليونانية ، قتل أوديب أباه وعاشر أمه دون أن يعلم فانتشر الطاعون في طيبة وأصاب العقم أهلها . وهذه المرأة وقعت عقدا قانونيا ملزما سلمت بمقتضاه ابنها وقبضت حقه بالمال المصروف . فأي لعنة سوف تسري ؟ أوديب يفقأ عينيه وهذه الشقراء المتزينة مختوم على قلبها وعينيها .

قلت وأنا أقوم الى دورة المياه :

ـ انه الختم الامريكي الفريد !

• • •

قال أستاذي وهو يبتسم : « الآن أعطيني الورقة » وكان ذلك ايذانا بانتهاء الامتحان . مددت له يدي بالورقة المطبوعة التي تحمل عنوان الرسالة واسمي ثم أسماء أعضاء لجنة الامتحان الثلاثة مسبوقة بعبارة « أقرت شكلا ومضمونا »

وقّع الورقة ومررها على العضوين الآخرين ثم قال وهو يتكيء بيديه على المائدة التي أمامه لينهض :

ـ تعالي هنا الآن !

ثم بمزيج من السلطة والحنان الأبوي :

ـ انك بنت جيدة ، لقد أحسنت عملا !

وقبّلني ، ثم قبلني الآخرون وهنأوني • ولكن الأستاذ بعبارته you're a good girl ! كان قد وضع اللحظة في سياق أليف يختلف عن السياق التقليدي لمنح درجة أكاديمية• كانت تلك البساطة تشبهه تماما كمناداة طلاب له « بسيد » اختصارا لسيدني ، ودورات التنس التي كان يشترك معهم فيها ، والحذاء الكاوتشوك الذي درج على لبسه •

ورحت ألملم أوراقي استعدادا للمغادرة ، كان الجو صحوا مائلا للحرارة وتغريد العصافير يملأ أرجاء المكان • قلت لمايكل وأنا أضحك :

ـ الآن تستطيع أن تقود سيارتك بما يحلو لك من سرعة • كان الامر سيكون مؤسفا فعلا لو مت في حادث سيارة وأنا في طريقي لمناقشة الدكتوراه !•

غادرنا بيت أستاذي كما جئنا ، مايكل في مقعد القيادة ومريد في الكرسي المجاور وأنا أجلس في وضع نصف مريح على ركبتي مريد • وفي أقل من ثلث ساعة كنا على مشارف أمهرست ، ولكن مايكل تجاوزها الى التلال المحيطة •

ـ الى أين ؟

ـ الى أماكن شديدة الروعة !

وراح يقود سيارته في طريق جبلية متعرجة وضيقة تكاد

أشعة الشمس لا تنفذ اليها من كثافة الاشجار فيها • أشجار عالية كأن لا نهاية لها تجاورها شجيرات ونباتات لا تعلو عن الارض أكثر من شبرين ، أشجار لها جذوع رفيعة وناعمة ، وأخرى جذوعها خشنة ومتغضنة يبدو حتى على البعد ما فيها من شقوق ، أشجار أوراقها عريضة بحجم كفين متصلين وأخرى لها أوراق صغيرة • يتعدد أخضر الشجر وبني جذوعها ، تتشابك الالوان وتتصل • وثلاثتنا نتابع المشهد في صمت أقطعه بقولي :

ـ ليتني أعرف أسماء كل هذه الاشجار !

ويقول مايكل :

ـ في جامايكا الخضرة أكثف من ذلك •

ثم نعود ثانية للصمت وأشعر بشيء من انهاك ، فهل أبدو كما في تلك الصورة في جامعة القاهرة ، بعد اعلان لجنة الامتحان منحي درجة الماجيستر ؟ كنت قد خلعت الرداء الجامعي الاسود الذي قدمت به الامتحان حسب التقليد المتبع ووقفت بين أصحابي وزملائي لكي تلتقط لنا صورة • ولم تخف ابتسامتي العريضة ـ المقصودة للصورة ـ الانهاك الواضح على وجهي • خرجنا من باب كلية الآداب نستقبل ليل القاهرة وطقسها الخريفي في صخب محبب • كانت ساعة الجامعة تدق الحادية عشرة • هل هي الطقوسية في المشهد أم الفة الصحاب وتجمعهم للمشاركة،أم أنه ارتياح المرأة لانجاز حلمها القديم بالانتماء للمكان ، أم أنها جميعا تضفي على اللحظة بهجة المناسبة السعيدة ؟

ومايكل لا زال يتوغل في الطرق الجبلية بدون اسراع هذه المرة ، وأنا أجلس على ركبتي مريد تلتقي عينانا فيربت على كتفي ويهمس :

ـ مبروك !

فأبتسم له وأتذكر أن أبي ظل حتى وأنا على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية موزعا بين رفضه لالتحاقي بالجامعة وحماسه لتفوقي الدراسي ورغبته في الاستمرار في تعليمي . قلت ضاحكة :

ـ قبل دخولي الجامعة بعام واحد كان أبي يقول ان من يدخل ابنته الجامعة حمار !

قال مايكل بجدية مدعاة :

ـ أتفق مع أبيك في هذا الرأي !

ضحكنا وبدا كأن هذا الضحك وضع حدا بين الصمت الذي لفنا ونحن نتابع الاخضر في التلال والثرثرة الصاخبة التي أعقبتها .

أوصلنا مايكل الى البيت وذهب . قال مريد :

ـ انتظري هنا ، سأصعد لاحضار آلة التصوير ، سألتقط لك صورة !

وحين عاد مشرعا آلة التصوير الصغيرة في يده قلت ضاحكة :

ـ صورة تذكارية !

ـ بمناسبة حصولك على الشهادة الكبيرة !

ـ كانت ستي فاطمة أم أبي تدعو بعد الصلاة طبعا ليس بالشهادة الكبيرة ! كانت تقول : « روحي يا رضوى يا بنتي الهي يرزقك بعريس الغفلة والباب بلا قفلة ! » .

وقفت أمام مريد الذي راح يلتقط لي عدة صور . قبل شهر كنت قد أتممت عامي التاسع والعشرين . لا بأس ، قلت

لنفسي وأنا أفكر في الكلمات الساخرة لأستاذ الرياضيات الذي كان يعلمنا بمدرسة « الليسيه » : « أقصى طموح الواحدة منكن ـ لو أفلحت ـ هو الحصول على شهادة الاعدادية لكي تحملها معها الى بيت الزوجية فتقول لنفسها بارتياح : أنا امرأة متعلمة ! » ابتسمت لآلة التصوير ولفكرة أنني وأنا أعدو خائفة من كلمات الاستاذ والحراملك المنتظر قد نجحت مرة أخرى في قفز حاجز وأفلت • وفي الصور التي استلمناها بعد أسبوع كانت هناك امرأة صغيرة تميل للنحافة ، يصل شعرها الاسود الى الكتفين ، تلبس قميصا بنيا وجونلة سكرية اللون ، لا تخفي الابتسامة التي تعلو شفتيها • ان بالوجه شيئا من شحوب وتعب • فهل كان ذلك من أثر الامتحان أم انه الانهاك الذي يعقب قفزة كبيرة يستجمع المتسابق لها كل ما أوتيه من قوة ؟

١٣

ـ انه الرابع من يوليه ، يوم عيد الاستقلال الامريكي !

ـ وبداية الاحتفالات بمرور مئتي عام على اعلان الاستقلال ·

مررنا بواجهات المحلات التجارية المزينة بالأعلام الامريكية· ابتعنا الجرائد وجلسنا على مقعد خشبي في الحديقة المجاورة لكلية أمهرست لمطالعتها ، وكان الجو صيفيا يميل الى الحرارة·

قلت لمريد وقد بهرتني بلاغة وجرأة ما اقرأ :

ـ اسمع يا مريد ، هذا خطاب لفريدريك دوغلاس القائد الأفرو ـ أمريكي الذي ولد عبدا وعلّم نفسه واشترى حريته وصار مدافعا عن تحرير العبيد في منتصف القرن الماضي ، تعيد « النيويورك تايمز » نشر مقتطفات منه · والخطاب الذي ألقي في روشيستر بنيويورك في ٥ يوليه ١٨٥٢ بعنوان : « الرابع من يوليه ومعناه للزنجي الامريكي » · بعد المدخل الذي يسأل دوغلاس فيه الحاضرين الذين كانوا من البيض طبعا : « لماذا طلبتم مني أن أتحدث اليكم اليوم ؟ وما شأني وشأن الذين أمثلهم بيوم استقلالكم الوطني ؟ » يقول :

« ان عيدكم المجيد هذا لا يشملني ، واستقلالكم الرفيع يكشف المسافة الشاسعة التي تفصلنا . النعم التي ترفلون اليوم فيها لا نشارككم اياها . التركة الغنية التي خلفها لكم آباؤكم تركة العدالة والحرية والرخاء والاستقلال ، تشتركون فيها ولا أشترك . الشمس التي أتت لكم بالضوء والبلسم الشافي أتت لي بالسياط والموت . وهذا الرابع من يوليه يومكم وليس يومي ، فلكم أن تبتهجوا وعلي أن أحزن . فأن تجروا رجلا مقيدا الى داخل معبد للحرية يتلألأ مهابة ونورا وتطلبوا منه مشاركتكم أهازيج الفرح ليس سوى تهكم لا انساني وسخرية فاجرة » . ثم يمضي قائلا : « ان موضوعي اذن ، اخواني المواطنين ، هو العبودية في أمريكا . وسوف أتناول هذا اليوم وخصائصهُ الشائعة من منظور عبد ، وانني اذ أقف هنا متوحدا مع العبد الامريكي ، حاملا لمظالمه ، أعلن أنه يوم يكشف له أكثر من كل الايام الاخرى عن مدى الظلم أسود مما هما عليه في هذا اليوم الرابع من يوليه . فان ننظر لاعلانات الماضي أو ادعاءات الحاضر نجد مسلك هذه الأمة مثيرا للاشمئزاز مقززا . ان أمريكا زائفة في ماضيها ، زائفة في حاضرها ، وقد آلت على نفسها أن تكون زائفة في مستقبلها كذلك » .

ـ فلنحتفظ بهذا العدد من « النيويورك تايمز » هذا الخطاب وثيقة . ربما النسخة الكاملة منه بالمكتبة وصوّريها لنا للاحتفاظ بها . أكملي !

« ألا يثير الاستغراب أنه ، ونحن نحرث ونزرع ونحصد ونستخدم الآلات ونبني البيوت ونشيد الجسور ونصنع السفن ونشتغل في الصفيح والحديد والنحاس والفضة والذهب ، انه ونحن نقرأ ونكتب ونحسب ونعمل موظفين وتجارا

وسكرتيريين ، وبيننا المحامون والاطباء والوعاظ والشعراء والمؤلفون والمحررون والخطباء والمعلمون ، وانه ونحن نسهم في شتى النشاطات التي يمارسها الآخرون ، نستخرج الذهب من كاليفورنيا ، نصيد الحيتان من المحيط الهادي ، نطعم الخراف والابقار في التلال ، نحيا ونتحرك ونفعل ونفكر ونخطط ونعيش في أسر كأزواج وزوجات وأطفال ، وفوق كل ذلك نعترف برب المسيحية ونعبده ونتطلع بالأمل الى الحياة الدنيا والى الخلود ما بعد القبر ـ ألا يثير الاستغراب أن يطلب منا أن نثبت أننا بشر ! » ·

« عيد استقلالكم ··· ماذا يعني للعبد الامريكي ؟ أجيب أنه يوم يكشف له أكثر من كل لأيام الأخرى عن مدى الظلم الفظيع والقسوة الواقعين عليه · ان استقلالكم بالنسبة له استقلال زائف،حريتكم التي تفخرون بها تحلل منحط ، مجدكم الوطني عنجهية متورمة ، أصوات ابتهاجكم أصوات فارغة لا قلب لها ، ادانتكم للطغاة وقاحة تلبس درعا من صفيح ، صيحات الحرية والمساواة التي تطلقونها سخرية جوفاء ، صلواتكم وابتهالاتكم ، عظاتكم وأعياد شكركم بكل ما فيها من استعراض ديني ليست بالنسبة له سوى جعجعة وزيف وخداع وفسق ونفاق ، انها ليست سوى الغلالة الرقيقة التي تخفي جرائمكم الكفيلة بالحاق العار بأمة من البرابرة · فليس هناك أمة على وجه الارض تقترف أعمالا دموية وصادمة كالتي يقوم بها شعب الولايات المتحدة في هذه الساعة » ·

« اذهبوا أينما استطعتم ، ابحثوا حيثما أردتم ، تنقلوا بين كل الممالك والنظم الاستبدادية في العالم القديم ، سافروا عبر أمريكا الجنوبية وابحثوا في كل ظلمة ، وعندما تجدون أكثرها فظاعة ضعوا حقائقكم بجانب الأعمال اليومية لهذه الأمة ،

وقولوا معي انه في البربرية المقززة والنفاق الفاجر تتربع أمريكا على العرش بلا منافس ! » .

ـ وشهد شاهد من أهلها !

ـ بل قل شهد ملدوغ من جحرها ! ولم أقرأ لك سوى جزء من المقتطفات المنشورة !

طويت نسخة « النيويورك تايمز » وقمنا متجهين الى مقهى قريب . سرنا في شارع نورث بليزنت ، الشارع الرئيسي بالبلدة ، مرورا بالفرست ناشيونال بنك أوف أمهرست المواجه لفندق اللورد جيفري ومخفر الشرطة ثم تجاوزنا محل « مأكولات لويز » والكنيسة الكبيرة ودفعنا باب المقهى الزجاجي ودخلنا .

ـ الطريف يا مريد أن الصفحة نفسها في الجريدة تحمل على أحد وجهيها خطاب دوغلاس وعلى الوجه الآخر صورة للنسخة الأصلية من اعلان الاستقلال .

دفعت له « بالنيويورك تايمز » وأنا أتلو من الذاكرة كطفلة تلقي قطعة محفوظات العبارة الأشهر بالاعلان : « اننا نؤمن أن هذه الحقائق بينة لا جدال فيها ، ان البشر جميعا قد خلقوا سواسية ، وان الخالق قد وهبهم من الحقوق ما لا تفريط فيه ، من بين هذه الحقوق الحياة والحرية والسعي من أجل السعادة » .

وأكمل مريد يقرأ من الجريدة :

ـ « وحفاظا على هذه الحقوق تقام بين الناس الحكومات

التي تستمد سلطاتها من موافقة المحكومين ، وحين تتنكر الحكومة لهذه الأهداف بالنيل منها ، فمن حق الشعب أن يغيرها ويسقطها ويقيم حكومة جديدة ينشئها وينظم سلطاتها على الأسس التي يرى أنها كفيلة بضمان سلامته وسعادته » ٠

ثم استغرق مريد في قراءة صامتة لباقي الوثيقة ولم يلتفت الى أن النادلة وضعت أمامنا القهوة التي طلبناها ٠ نبهته لذلك فأخذ يشرب قهوته ويتابع القراءة في صمت ٠ وأفكر في أن توماس جيفرسون الذي صاغ اعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ كان يمتلك عبيدا ، وأن ابراهام لينكولن صاحب اعلان تحرير العبيد سنة ١٨٦٣ قد قال مرة : « أنا لا أهدف الى ارساء المساواة الاجتماعية بين البيض والسود ٠ ان هناك فارقا طبيعيا بين الاثنين ، وأرجح أن هذا الفارق سوف يحول دائما دون أن يحيا الاثنان معا على قدم المساواة الكاملة » وأرشف قهوتي الامريكية وأتساءل ان كانت محاكمتي لهذه الرموز الامريكية تفتقد الموضوعية المرتكزة الى النسبية التاريخية ؟ لقد شكّل هؤلاء الرجال في عصرهم قوة دفع للحركة التاريخية٠ قادوا القطار باقتدار ولكن ما الذي يقوله فحم المحرقة ؟ « ان البشر جميعا قد خلقوا سواسية » هنا المطب والمفارقة ، فهل قال أحد منهم ان « هؤلاء الهمج » سكان البلاد الاصليين أو أولئك « السود كالشيطان » من جنس البشر ، وهذا النص الذي يعلن استقلال المستعمرات الامريكية الثلاث عشرة يخص من أهل البلاد « البشر » أي مستوطنيها البيض ! ولكن الكلمة مشاع فمن يجرؤ على أن يحبس المطر أو أن يحول بين صوت العاصفة وآذان السجناء ، من يجرؤ ؟ وينحني العجوز الابدي

على كتابه يسجل أن أول من سقط من شهداء الثورة في مذبحة بوسطون سنة ١٧٧٠ هو كريسبوس أتوكس الذي تختلط في عرقه الدماء الافريقية بالدماء الهندية الحمراء · وتأتي الكلمة المشاع للعبيد في المزارع الجنوبية ، تدخل تحت جنح الليل اليهم ، تشاركهم الهمس في الفراش فيسارعون الى الانضمام الى تلك الثورة التي تعلن أن البشر سواسية · وتسمح قيادة الثورة بالتحاق الراغبين من العبيد الى صفوفها على أن تكافئهم بعد النصر باعتاقهم · ولكن هذه الدنيا مصالح ، وأصحاب المزارع في الجنوب يريدون الحرية لهم وليس لعبيدهم فيضغطون على الجنرال واشنطون الذي يستجيب لهم ويقرر ضمانا لولاء الولايات الجنوبية ان ما ينطبق على الابيض لا ينطبق على العبد لأنه مملوك · ولم يسمح بعد ذلك لأي عبد بالاشتراك في جيش الثورة الا اذا كان زنجيا حرا سبق له الخدمة في الجيش ·

طوى مريد الجريدة ودفعنا حساب القهوة وغادرنا · في الطريق واجهتنا الأعلام الامريكية المرفرفة ، قلت :

ـ أتساءل أحيانا ان كان بمقدوري أن أنظر الى أمريكا بعين موضوعية · وكيف للملدوغ أن يتحدث بهدوء معملي عن خواص العقربة ؟ وأين أذهب بذلك القهر الخاص بانسان العالم الثالث الذي ازداد حدة باقترابي من تجربة العنف الاستعماري الآثم الذي تأسست فيه التجربة ؟ وحين تستوقفني كما يحدث أحيانا مظاهر العمران الهائل وبعض المنجزات يدق في ذاكرتي ناقوس صغير حزين ، عبارة قالها أحد القادة

الهنود الذين شهدوا مجزرة ووندد في سنة ١٨٩٠ التي حسمت الصراع لعشرات السنين بعد ذلك بين المستوطنين الأوروبيين والسكان الأصليين • قال : « في لحظتها لم أكن أعرف كم من الأشياء قد انتهى • وعندما أنظر خلفي الآن من فوق تلة شيخوختي يظل بامكاني رؤية النساء والاطفال المذبوحين مكومين ومتناثرين ••• بالوضوح نفسه الذي رأيتهم به بعيني شبابي ، وأستطيع أن أرى أن شيئا آخر قد مات هناك في الطين والدماء ودفنته العاصفة الثلجية • مات حلم شعب • كان حلما جميلا • انكسر عقد الأمة وانفرط ولم يبق له من مركز • ماتت الشجرة المقدسة » •

١٤

ـ الرسالة في التجليد وما ان استلمها حتى أرسل لكم بالبريد بالنسخ الثلاث المقررة · أريد المغادرة بعد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر فأرجو الاتصال بشركـة الطيران التـي تتعاملون معها ، لكـي تصرف لنـا بطاقتي سفر على حساب البعثات وترسلها لنا بالبريد ، وأنا من ناحيتي سوف أتصل بها لحجز موعد السفر من مطـار برادلي الى مطـار كنيدي بنيويورك ثم الى القاهرة مرورا بروما ·

كنت أتحدث تلفونيا الى مدير مكتبنا الثقافي بواشنطون · جاءني صوته في الطرف الآخر :

ـ أولا مبروك ومبروك ثانية لهذه السرعة القياسيـة في الحصول على الشهادة · ولكن لماذا تتعجلين العودة هكذا ، آمل أن يكون السبب خيرا !

ـ الله يبارك فيك ، شكرا · كل ما في الامر أنني أتيت الى هنا لانجاز عمل محدد وانتهيت منه وأريد العودة الى مصر · (ثم وأنا أضحك) يا دكتور الغربة وحشة وأنا عاوزة أروح بلدي !

ضحك وقال :

ـ يا دكتورة ··· أمرك !

وبدأنا نعد للمغادرة · وذات صباح حمل مريد حقيبة السفر الزرقاء وحملت أنا حقيبة بنية أصغر واتجهنا بهما الى مكتب البريد المركزي بشارع نورث بليزنت على بعد خطوات من البيت · داخل المكتب فتحنا الحقيبتين المملوءتين بطرود بنية صغيرة · وكنا في اليومين السابقين قد قمنا بشراء عشرات الأظرف المقواة ووضعنا في كل منها عددا من الكتب ثم كتبنا عليها اسمي وعنواننا في القاهرة مضافا اليها كلمة مطبوعات بخط بارز · أعطانا موظف البريد كيسا كبيرا من القماش السميك لنضع الطرود فيه بعد أن نبهنا الى ضرورة كتابة العنوان على كل مظروف على حدة · حمل الكيس ووضعه على الميزان الضخم خلف العارضة الخشبية ثم رفعه بكلتا يديه وأغلقه وختمه وعاد الى مقعده وانحنى على دفتر الايصالات الصغير قائلا : « أربعة وستون رطلا من المطبوعات ! » ·

في مساء اليوم التالي كنا مدعوين الى العشاء ببيت أستاذي · وكان قد حدد الموعد بعد الامتحان مباشرة ، دعاني أنا ومريد وأعضاء لجنة الامتحان وقال بابتسامة طيبة : « حفل صغير تكريما للدكتورة الصغيرة ، لا تنسوا ، سوف أنتظركم في ١٣ يوليو القادم » ·

لم ننس تاريخ اليوم ، والأرجح أننا لن ننساه ، دق جرس التلفون قبل الظهر ، مكالمة خارجية ·

ـ أحدثك من بيت خالك · فهيم ابن خالك استشهد في الشياح · وصل جثمانه وتم دفنه ·

ويزداد وجه مريد امتقاعا ولا يقول شيئا . ويعيد السماعة الى التلفون ونجلس في صمت ، تلح التفاصيل الصغيرة فأرى الوجه الأسمر النحيل وآثار حرق قديم في الرقبة وعيني المراهق القلقتين وكتاب قواعد الانجليزية الذي رحت أدرس له فيه عشية امتحان الثانوية العامة قبل عدة سنوات ، أرى الموت يحملها في منديله الاسود الكبير ، يعقده ويمضي ، يغيب في البعيد . ولا أحد منا ينطق . هل ننزل الى الشارع ؟ هذه الغربة ! هل نعود للبيت ؟ هل نذهب الى دعوة الأستاذ ؟ تشتد الغربة أمام هذه المائدة المغطاة بمفرش أبيض ، ومريد يجلس منكمشا وصامتا . تصيبه قشعريرة فيعطيه أستاذي سترة يلبسها . يأكل قليلا ثم يدخل الى الحمام ويتقيأ ثم نرحل .

ونعد للسفر . ووكالات الأنباء تحمل أخبارا يومية عن حرب تستعر في لبنان يصورها الاعلام الامريكي على أنها صراع بين مسلمين ومسيحيين ، وخبرا عن موقف غير مسبوق للحكومة المصرية التي ترفض في مؤتمر دولي ادانة اسرائيل . ونعد للسفر . أستلم النسخ المجلدة من رسالتي أقدمها الى الجهات المقررة . ثم أذهب الى ادارة الجامعة لأطلب ما يثبت أنني حصلت على الدكتوراه وأعرف أن الشهادة الرسمية ، الورقة المقواة المكتوبة بخط منمق وجميل ، لا تمنح الا مرتين في العام . أقول للموظف المختص :

ـ أرجو ارسال الشهادة بالبريد على عنواني في القاهرة. لا ، لن أحضر حفل التخرج ، فقط أريد ذلك الخطاب الذي يفيد أنني حصلت على الدرجة العلمية وأن الشهادة الرسمية سوف تمنح في سبتمبر .

بعد يومين أذهب لاستلام الخطاب وأشكره وأمضي .

١٥

غادرنا أمهرست صباح الخامس من أغسطس ١٩٧٥ ، وكنا نحمل حقيبتي سفر والآلة الكاتبة الصغيرة التي كنت اشتريتها صباح ذلك السادس من اكتوبر · رافقنا بعض أصدقائنا الى مطار برادلي بهارتفورد · ودعناهم وركبنا الطائرة الى نيويورك · وفي السابعة مساء أقلعت بنا طائرة « بان أمريكان » الى روما · أمضينا اسبوعا في العاصمة الايطالية ثم سافرنا الى القاهرة التي وصلناها مساء الثاني عشر من أغسطس ·

في الاسبوع نفسه وصل الى القاهرة أيضا هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي لترتيب الأوضاع داخل البيت المصري ·

حين غادرت القاهرة قبل عامين كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة مقطوعة منذ حرب ١٩٦٧ · وكنت قد حصلت على تأشيرة الدخول من السفارة الاسبانية القائمة برعاية المصالح الامريكية في مصر · كما اقتضى سفري وسفر بعض الطلاب الآخرين الحصول على توقيعات بالموافقة ، بالاضافة الى التوقيعات المعتادة لرئيس القسم وعميد الكلية

ومدير الجامعة ، من وزارة التعليم العالي ووزارة الخارجية .

ولكن الزمان في عامين تغير . كان نيكسون قد أتى لزيارة مصر فقام المسؤولون بطلاء واجهات البيوت التي سوف يمر عليها في طريقه الى الاسكندرية (ساعتها كتبت لي صديقتي في مرارة ساخرة تقول : « وربما فكرت الحكومة في أن تسوقنا جماعات الى الحمامات حتى نصبح جديرين بأن تقع عين السيد نيكسون علينا ، أو لعلهم فكروا في طلائنا كما واجهات البيوت بالجير الابيض ! ») وتبدى الكرم الشرقي في الحفاوة البالغة برجال الادارة الامريكية الذين أخذوا يتوافدون على مصر ، يعقدون الصفقات ويتمتعون بعروض لأشهر الراقصات على خلفية من أهرام مصر . كانت الصداقة المصرية الامريكية تتوطد وتسير باتجاه الولاء المطلق ، ولاء الحكومة المصرية طبعا !

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من وصولنا ، تم توقيع ما سمي بالاتفاقية الثانية لفصل القوات ، التي ينص بندها الاول على أن حكومتي مصر واسرائيل قد اتفقتا على أن النزاع بينهما وفي الشرق الاوسط لا يحل بالوسائل العسكرية .

وفي الحادي عشر من سبتمبر أغلقت اذاعة المقاومة الفلسطينية بالقاهرة حيث يعمل مريد . في الاعلام المصري راحت تبرز نغمة عن سلام عربي اسرائيلي ، واسرائيل تضرب الجنوب اللبناني ، والحرب الأهلية اللبنانية تضطرم وتستعر. سافر مريد للعمل في اذاعة المقاومة ببيروت . وعدت لاستلام عملي كمدرسة في كلية الآداب جامعة عين شمس .

قال موظف الشؤون الادارية :

ـ يا دكتوره ، أين الشهادة ؟

أجبــت :

ـ ان كنت تقصد الكرتونة فسيرسلونها لي بالبريد لأني لم أنتظر استلامها • معي هذا الخطاب من ادارة الجامعــة ، وأعتقد أنه يفي بالغرض !

نظر لي الموظف مندهشا ، سلمته الخطاب وذهبت •

رحت أتابع أخبار القصف اليومي بالعاصمة اللبنانية ، كنت أحمل جنينا في بطني ، أجهضت • صدر كتاب جديد لمريد يضم كلماته في برنامج يومي درج على كتابته واذاعته وكان اسم الكتاب « الأيام الصعبة » • عاد مريد الى القاهرة • واصل الكتابة وواصلت العمل في الجامعة • حملت ثانية • أعيد فتح الاذاعة ثم أغلقت مرة أخرى مساء الثامن عشر من نوفمبر ١٩٧٧ ، عشية زيارة السادات لاسرائيل • مساء اليوم التالي شاهدنا على شاشة التلفزيون مصافحة السادات لبيجن ولغولدا مائير واستمعنــا الى الفرقــة الموسيقية العسكريــة الاسرائيلية تعزف « الهاتكفاه » ونشيد مصر الوطني الذي لم يكن قد تغير بعد من « والله زمان يا سلاحي » الى « بــلادي بلادي » • في الصباح التالي ، وكان يوم عيد الأضحى ، طرق بابنا خمسة من رجال الأمن ، جاءوا لالقاء القبض على مريد وترحيله من مصر • ودعته وأنا أحمل طفلنا الصغير تميم ، كان عمره خمسة أشهر • ورغم تميم ، وشجرتي الجوافــة اللتين زرعهما مريد في حديقة الدار وأدهشتنا سرعة نموهما واثمارهما ، ورغم ثقتي التي بلغت حد الايمان بأن الأمور لن تستمر على ما هي عليه ، فقد كنت أعرف أن الأيام القادمة هي فعلا أيام صعبة •

روايات وقصص من منشورات دار الآداب

○ حكاية بحار	حنا مينة
○ الدقل	حنا مينه
○ الوطن في العينين	حميدة نعنع
○ ظلال على النافذة	غائب طعمة فرمان
○ النهايات	د. عبد الرحمن منيف
○ النمو في اليوم العاشر	زكريا تامر
○ مهمة غير عادية	أبو المعاطي أبو النجا
○ نجران تحت الصفر	يحيى يخلف
○ مجنون الورد	محمد شكري
○ سلخ الجلد	د. محمد برادة